ديغول:
الضابط الذي حارب الإنكليز من لندن

«لقد ترملت فرنسة»!

هكذا قال جورج بومبيدو! لكن من هو ذلك الرجل الواحد الذي يمكن أن يرمل أمة كاملة؟ إنه، بالتأكيد، شارل ديغول. وها هو الآن، ذلك العملاق الهائل القامة، الضئيل الشاربين، ينطفئ بهدوء في قريته الصغيرة «كولومبي» ذات مساء خريفي حزين من أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر في العام 1970.

لقد طوى شارل ديغول كتاباً كاملاً لا صفحة واحدة: تاريخ فرنسة الحديث، هو. وهو أيضاً «زوجها»، شاءت أم أبت. إنه يترك كل شيء منذ العام 1940، لكي يتزوج فرنسة. وهكذا سوف يعاملها. هو يقول لها أي رداء ترتدي، وأي قبعة تعتمر، وأي دولة تصير. هو يترك لها حرية الأكل والشراب والتنزه على البولفارات الطويلة السارحة تحت أشجار الإمبراطورية، لكن إذا حل المساء فالمخدع واحد: الديغولية تنام في مخدع فرنسة.

كرهه الإنكليز، وامتعض منه الأميركيون، وحاربه الألمان، ولم يثق به الروس. فقط الفرنسيون وحدهم أحبوه ثم سحبوا منه هذا الحب، ثم أعطوه، وأخذوه من جديد. هكذا تفعل فرنسة مع قادتها. إنها تُسحَر بهم في المساء، وفي الصباح تخرج إلى الشوارع لتتظاهر ضدهم. لكن شارل ديغول كان يعرف تاريخ فرنسة جيداً: سوف يكثر من الاستفتاءات، وفي النهاية يفعل ما يشاء.

وسوف يستهوي فرنسة باللغة التي تفهمها أكثر من أي شيء آخر، وتحبها أكثر من أي شيء آخر: اللغة! إنه جنرال من غير عسكر ومن غير عسكرية. وعلى وجه الدقة فهو كجندي ربح معركة واحدة فقط في إبيفيل، مقاطعة بيكاردي، في العام 1940. ولعلها كانت المعركة الوحيدة التي ربحتها فرنسة في تلك الأيام الحزينة، لكنه كان انتصاراً ضئيلاً، لدرجة أن الفرنسيين، وحتى الجيش الفرنسي، اختاروا أن يتجاهلوه.

بالكلمات، لا بالمعارك، ربح ديغول حروبه الكثيرة، وخصوصاً غزوته لفرنسة. وحول شخصه فقط توحد الفرنسيون، أحياناً ضده، أحياناً معه، لا فرق. ذلك أن كلا الموقفين كان دليلاً على أنه وحده نقطة الاستقطاب، ووحده استطاع أن يطبع اسمه على ثلاث جمهوريات: الثالثة التي سقطت في الذبول، والرابعة التي امتلأت بالكوارث، والخامسة التي استنبطها من بين الركام.

كان يحب الكلام ويجيده، وكانت مؤتمراته الصحافية أشبه بأمسيات شعرية تلقى كل قصائدها من الذاكرة. وكان ممتعاً أن تسمعه، بقدر ما هو ممتع أن تقرأه. وكان يدور ويدور حول شعار واحد هو عظمة فرنسة. ومن أجل هذه العظمة ذهب إلى السلام طائعاً، وإلى الحرب متقدماً. وبعد سنين قليلة من ولادة الجمهورية الخامسة، كان يحقق ما لم يحققه أي قائد من بلاد الغال أو أي زعيم جرماني من قبل، أي المصالحة بين ألمانية وفرنسة. وهو أيضاً أول زعيم فرنسي يستطيع أن يقف في وجه المد الشيوعي الفرنسي، على الرغم من أنه اتهم بالتواطؤ مع السوفيات. وشارل ديغول الحاكم هو الذي سدد لأميركة ديون خطة مارشال قبل موعدها بكثير. وهو الذي أعاد إلى سطح الأرض ذلك (الفرنك) الغارق في ضباب الهاوية. وذلك الخطيب الحماسي الذي أدار فرنسة من الإذاعة، ثم من التلفزيون، هو أيضاً ذلك السياسي البارد الذي عندما أخفق المتطرفون الفرنسيون في اغتياله بسبب سياسته الجزائرية، نظر إلى الرصاص الضائع حوله وقال: ملعونٌ أبوهم، إنهم لا يجيدون الرماية!

وهذا الرجل الإمبراطوري النابوليوني الأهواء، كما يقول لنا أندريه مالرو، هو الذي سيفتك بالإمبراطورية الفرنسية، ويصبح أيضاً الناطق الأول باسم الدول الصغيرة، منتقداً الهيمنة المتقاسمة بين الأميركيين والسوفيات.

ذلك كان شارل ديغول، الرجل الذي ترك آثاراً طويلة في العالم العربي. لكن بما أن هذا الكتاب يعنى فقط «بجنرالات الشرق» في المرحلة الواقعة بين العامين 1914 و1945. فإننا للأسف نحصر حديثنا عن الرجل في تلك المرحلة، أي المرحلة التي تزعم فيها ديغول «فرنسة الحرة» من خارج فرنسة، وقاد الحرب و«الإنقاذ» منتقلاً من برازافيل، إلى السنغال، إلى القاهرة، إلى دمشق، إلى بيروت، إلى لندن.

كان العام 1941 حاسماً في الحرب الكونية الثانية. فهذه السنة سوف ينضم إلى النزاع العالمي الاتحاد السوفياتي واليابان والولايات المتحدة دفعة واحدة. وفي هذه السنة أيضاً سوف تبدأ العلاقة بين ديغول وحلفائه بالتدهور. وقد وصلت الأزمة بين «فرنسة الحرة» والإنكليز إلى ذروتها، خلال الحملة المشتركة على قوات فيشي في سورية ولبنان، لكنها لم تنفرج بعد ذلك طوال السنوات الأربع اللاحقة. وفي تلك الأثناء بعثت «هيئة الأحرار الفرنسيين» المقيمة في لندن ببرقية إلى ديغول، الموجود آنذاك في القاهرة، تحذره فيها من أن سياسته قد تؤدي إلى خلاف نهائي مع بريطانية «الأمر الذي يعني نهاية فرنسة الحرة، ونهاية آخر أمل في إنقاذ وطننا البائس».

وقد رد ديغول على لجنته ببرقية تأنيب، لا بد لنا من قراءتها لأنها سوف تكون قاعدة لسياسته طوال الحرب:

«إنني أعي، أكثر من أي كان، المضاعفات القومية والدولية الخطيرة، المترتبة على أي انشقاق بين فرنسة الحرة وبريطانية. وإنني لهذا السبب بالذات قررت أن أضع إنكلترة وجهاً لوجه أمام هذه المضاعفات، فيما إذا خطر لها أن تتصرف تجاهنا بطريقة غير مقبولة. ولقد سمعت أن البريطانيين قد تذمروا، لكن هذا التذمر لا وزن له بالمقارنة مع واجباتنا تجاه فرنسة. إنني أدعوكم لأن تكونوا أكثر صموداً، وألا تعطوا الانطباع بأن أولئك الذين يمثلونني لا يتبعون سياستي تماماً. إن عظمتنا وقوتنا تكمنان فقط في عنادنا بشأن كل ما يتعلق بحقوق فرنسة».

ففي القاهرة نفسها كانت لديغول أيضاً مشاحنات كثيرة مع الجنرال إدوارد سبيرس الرجل الذي نظم المراحل الأولى من الدعم البريطاني «لفرنسة الحرة». وبعد عام من الانسجام بين الرجلين بدأ الامتعاض المتبادل يظهر على السطح، ثم تحول هذا الامتعاض إلى فراق بعد انتقال سبيرس من القاهرة إلى منصبه الجديد في سورية ولبنان. ويروي سبيرس أن ديغول انفجر في وجهه ذات يوم قائلاً: «لا أعتقد أن بإمكاني بعد اليوم التفاهم مع الإنكليز. إنكم جميعاً سيان، لا يهمكم سوى مصالحكم وأهدافكم، ولا تشعرون بمتطلبات الآخرين. هل تعتقد أنه يهمني أن تربح بريطانية الحرب؟ لا، إطلاقاً، إن كل ما يعنيني هو انتصار فرنسة».

وعندما رد سبيرس أن الانتصارين واحد، قال ديغول: أبداً (pas du tout).

كان ديغول يدفع بالخلاف مع حلفائه إلى أقصى الحدود، لكي يؤكد للفرنسيين في الداخل إنه هو - وليس حكومة فيشي - الذي يناضل من أجل حماية مصالح فرنسة، وإعادتها إلى صفوف الكبار، وكان يعرف أن فرنسة الضعيفة لا تملك إلا أن تكون صلبة. وقد روى أنطوني إيدن إنه أبلغ ديغول ذات يوم بأنه من بين جميع الحلفاء، يجد صعوبة في التعاطي معه، فأجابه ديغول: «وكيف تريدني أن أتصرف. إن فرنسة دولة عظمى».

ويروي المؤرخ هارولد نيكلسون أن تشرشل انفجر ذات يوم، عندما قال أحدهم إن ديغول رجل عظيم، وقال: «ديغول عظيم؟ إنه أناني، متعجرف ويعتقد أنه نقطة الثقل في العالم... عظيم؟ أجل، إنك على حق، إنه لرجل عظيم».

سواء كان عظيماً أم لا في نظر الإنكليز. فقد كان في الشرق حليفهم وعدوهم في وقت واحد.

وقد كتب ديغول يقول: «في بداية آذار/ مارس 1941 أيقنت بلا أي شك أن الحرب في الشرق الأوسط وإفريقية ستؤدي بنا إلى تجارب كبرى في وجه العدو، وإننا سنواجه في وقت واحد معارضة شديدة من قبل حكومة فيشي، وسوف نمر في خلافات خطيرة مع حلفائنا. لذلك كان عليَّ أن أتخذ القرارات الضرورية في لحظتها. قررت الذهاب إلى هناك ومعي أفكار بسيطة. كنت أعرف أنه وسط ذلك التعقيد من العناصر والأمور، فإن لعبة حيوية تلعب هناك. إذاً، لا بد أن يكون لنا دور فيها».

وهكذا طار الجنرال ديغول إلى القاهرة، حيث حاول أن يضغط على الجنرال ويفل لقبول اقتراحين: الأول: أن يسمح للقوات الفرنسية الحرة ـ وعددها آنذاك نحو ستة آلاف رجل ـ (في الشرق الأوسط) بالتجمع، وشن حملة هجومية للسيطرة على سورية ولبنان. والثاني: أن يشدد ويفل الحصار البحري على موانئ المشرق، وصولاً إلى جيبوتي. حيث يرغم تلك المقاطعات على أن تغير مواقفها. غير أن ويفل رفض أياً من هذه الخطوات، على أساس أن لديه ما يكفيه من المتاعب في جبهات أخرى، وتخوفاً من

الغرق في صعوبات لا نهاية لها مع حكومة فيشي. وكانت وزارة الخارجية البريطانية تدعم ويفل في هذا الموقف، لأنها كانت لا تزال تأمل في أن تجتذب حكومة فيشي إليها. وأكثر من ذلك فإن ويفل بصفته رجلاً عسكرياً، كان يشعر أن ديغول يبالغ في التفاؤل في حمل المقاطعات الفرنسية آنذاك على تغيير مواقفها، والوقوف إلى جانبه بدلاً من البقاء إلى جانب حكومة فرنسة الفيشية المستسلمة للألمان.

هكذا، ترك ديغول القاهرة في شيء من الحيرة في منتصف نيسان/ إبريل، عائداً إلى مقره الأساسي في برازافيل، وفي ظنه، - بل ربما في قناعته - أن هدف الإنكليز الأول هو إبقاؤه خارج لبنان وجيبوتي، بحيث تتم لهم السيطرة على تلك المناطق في وقت لاحق.

يصل ديغول إلى برازافيل إذاً، في الوقت الذي كان الجنرال ويفل يركز قواته في العراق. ومن برازافيل يرسل ديغول تعليمات إلى نائبه في القاهرة الجنرال كاترو بأن يضغط على الإنكليز مرة أخرى، لكنه سوف يتلقى برقية من الجنرال سبيرس في التاسع من أيار/مايو، يخبره فيها «بأنه من المستحيل علينا أن نؤمن النقل لقوات فرنسة الحرة خلال شهر على الأقل» نظراً إلى العمليات العسكرية التي كانت قائمة في العراق ويضيف: «إن الجنرال ويفل قد طلب إليَّ أن أخبرك بأنه على الرغم من كونه سعيداً دائماً برؤيتك شخصياً، فإنه لا يرى أي ضرورة لأن تأتي إلى القاهرة الآن أو في المستقبل القريب». وإذ فرغ ديغول من قراءة هذه البرقية، شعر أن رأسه الطويل يكاد يضرب السقف، وبعث ببرقية إلى كاترو في 12 أيار/ مايو يطلب منه الانسحاب من القاهرة:

«في ضوء السياسة السلبية التي اتبعها حلفاؤنا الإنكليز في الشرق الأوسط، فإنني أعتقد أن وجود شخصية في حجمك في القاهرة لتمثيل فرنسة الحرة هناك، لم يعد له ما يبرره. أرجوك أن تبلغ الإنكليز بهذا القرار. وليس أمامك أي سبب لأن تخبئ عنهم الداعي لرحيلك، على العكس إني أطلب منك أن توضح لهم ذلك».

غير أن تشرشل في هذه الأثناء، كان قد بعث في 9 أيار/ مايو ببرقية إلى الجنرال ويفل، يقول فيها:

«إنك تعرف ولا شك الخطر الذي يمكن أن يتأتى عن إقدام بضعة آلاف من الألمان المنقولين جواً على احتلال سورية. وفي ضوء قناعتك الواضحة بأننا نفتقر إلى الكثير من الإمكانات، فإننا لا نرى أي طريق آخر مفتوحاً أمامنا، سوى أن نقدم على تزويد الجنرال كاترو بوسائل النقل اللازمة، وأن تدعه هو وقوات فرنسة الحرة يبذلون ما يستطيعون في هذه اللحظة وما يرونه مناسباً...».

ثم عندما سمع تشرشل بتعليمات ديغول إلى كاترو بالانسحاب من القاهرة، بعث على الفور برسالة مهدئة إلى برازافيل. طالباً إلى الجنرال الفرنسي أن يعود عن قراره، ومبلغاً إياه بالتعليمات الجديدة التي بعث بها إلى ويفل، لتأمين وسائل النقل للحملة التي تنوي قوات فرنسة الحرة القيام بها في سورية ولبنان. وأضاف إلى ذلك كله خبراً حسناً جداً، إذ قال إن حكومة الحرب في لندن قد قررت تشديد الحصار حول جيبوتي كما طلب ديغول. وقد فوجئ ديغول بهذا الموقف البريطاني المستجد والمفاجئ، لدرجة أنه أبرق أول مرة إلى تشرشل باللغة الإنكليزية، خاتماً رسالته بتحية نادرة: «إنكم سوف تربحون الحرب بلا شك». غير أن السعادة التي رافقت تلك البرقيات المتبادلة بين الرجلين لم تختم دائماً على علاقاتهما في المشرق أو في الشرق الأوسط. بل على العكس فإن ضباباً كثيفاً سوف يظل يجلل تلك العلاقات حتى نهاية الحرب، في العام 1945.

على أي حال يعود ديغول إلى القاهرة في 25 أيار/ مايو، وفي غضون ذلك يكون الجنرال ويفل الذي يخضع لكل أنواع الضغوط، قد استطاع أن يجمع من هنا وهناك، شمل قوة ضعيفة مزركشة الألوان، للقيام بما يسمى «الحملة السورية»، في مواجهة ثلاثين ألف جندي فرنسي موالين لحكومة فيشي وبقيادة الجنرال دنتز. لم تكن قوة فرنسة الحرة تزيد على ستة آلاف رجل كما ذكرنا بقيادة الجنرال لوجنتيوم، وتدعمها نحو عشر دبابات على الأكثر، ونحو أربع وعشرين طائرة، وبضع قطع مدرعة أخرى. أما القوات البريطانية في الحملة، فكانت مؤلفة من الجنود الأوستراليين الذين أمكن الاستغناء عنهم في طبرق.

ويبدو أن دنتز لم يكن ينوي المقاومة في بادئ الأمر، غير أنه عاد واتخذ قراراً معاكساً، بعد تزايد الدعم الجوي الألماني، إذ أخذت طائرات الفوهرر تهبط بصورة منتظمة في مطارات سورية.

مرة أخرى خشي الفرنسيون أن يعودوا إلى مواجهة بعضهم بعضاً كما حدث غير مرة في التاريخ، وأن يتقاتل جنود فرنسة خارج أراضيها بالحرب، وأن يشوهوا وجوه بعضهم بعضاً. لكن الأمر بدا حتمياً إلى حد ما. وكان على ديغول أن يختار بين أن يمضي في معركته وحلمه، وبين أن يتجنب المواجهة مع دنتز الذي قرر الآن تصعيد الدفاع.

بدأت الحملة البريطانية ـ الفرنسية ضد سورية ولبنان في 8 حزيران/ يونيو 1941، ومعها أوامر مشددة بعدم إطلاق النار إلا إذا أطلقت النار عليها. ولم يطل الأمر أمام مثل هذه اللحظة. وظهر بادئ الأمر أن الحملة تتقدم بشكل جيد، لكن قادة قوات فيشي الفرنسية ما لبثوا أن لاحظوا ضعف القوات المهاجمة، وبدأت عندها المقاومة تتصلب، فاضطرت القوات الفرنسية الحرة إلى التوقف على الطريق إلى دمشق، في حين لقيت القوات البريطانية مواجهة عنيفة إلى الشمال من مدينة حلب. لكن الوضع في العراق كان خلال ذلك قد تغير لصالح الإنكليز، وهنا استطاع ويفل أن يحرك ثلاثة ألوية أخرى إلى سورية من الشرق، وفي 21 حزيران/ يونيو دخلت قوات فرنسة الحرة إلى دمشق، لكي يلحق بها الجنرال ديغول بعد ذلك بثلاثة أيام.

وقد عرف الجنرال دنتز الذي لم تكن لديه تعزيزات يطلبها من أي مكان، أنه لا يستطيع الاستمرار في القتال إلى الأبد. وفي 18 حزيران/ يونيو طلب من القنصل الأميركي في بيروت أن يأتي له بشروط الهدنة التي يريد الإنكليز وضعها. إلا أن القتال ظل مستمراً في غضون ذلك، ولم يطلب دنتز وقف النار حقاً إلا في 10 تموز/ يوليو، حين أعلن الدخول في مفاوضات الاستسلام. وقد شعر ديغول آنذاك بأن مواطنيه الفرنسيين الذين يدينون بالولاء لألمانية هم الذين عمدوا عن قصد إلى إطالة الحملة على سورية، من أجل إراحة القوات النازية المندفعة نحو روسية، على أي حال انتهت الحملة بنحو أحد عشر ألف قتيل وجريح ومفقود، من الفرنسيين الأحرار، وأعدائهم الفيشيين، وأيضاً من الأوستراليين والإنكليز والهنود والآخرين.

ازدادت الهوة اتساعاً بين ديغول والإنكليز. فالجنرال الفرنسي لم يكن راضياً عن طريقة الإنكليز في توجيه المعركة، ولا عن الطريقة التي أرسلت بها التعزيزات إلى قواته. وسوف تكبر الهوة أكثر، إذ تتجاهل لندن الشروط التي بعث بها هو إلى دنتز حول قبوله بالهدنة. لقد أصبح مقتنعاً الآن بأن البريطانيين ينكرون الانتصار على قوات فرنسة الحرة.

ثم أعقب ذلك سلسلة حوادث صغيرة مع القوات، لكن هذا التمنع لن يدوم طويلاً. وسوف يستدعى ديغول إلى مواجهة مع تشرشل في 10 داوننغ ستريت في الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر.

ثمة حقيقة لا بد أن تقال عن تشرشل، ذلك الرجل الذي عرف بقسوته وفظاظته ولؤمه، لم يكن يعرف كيف يحقد. لقد كان رجلاً ذكياً يعرف ضعف الإنسان، ويعرف أن للحياة هبوطها وصعودها، ولذلك غالباً ما كان يميل إلى العفو. وقبل أن يعقد تلك المواجهة مع ديغول قال لسكرتيره الخاص جون كولفيل: إنه عندما يدخل ديغول إلى المكتب، «سوف أقف وأنحني قليلاً، لكنني لن أصافحه، وسوف أومئ إليه ليجلس على الجانب الآخر من الطاولة». وكان مقرراً أن يقوم كولفيل، الذي يجيد الفرنسية بدور المترجم. وقد وصل ديغول في الساعة الثالثة تماماً كالعادة، وجلس في الكرسي الذي أشار إليه تشرشل، وراح يحملق فيه منتظراً منه أن يبدأ الحديث. وقد روى كولفيل في مذكراته فيما بعد وقائع ذلك الاجتماع المسلي، الذي لم يكن بالفعل مسلياً آنذاك. يقول كولفيل: بدأ تشرشل بالقول: «أيها الجنرال ديغول، لقد طلبتك أن تجيء إلى هنا بعد هذا الظهر»، ثم توقف ونظر إلى كولفيل الذي ترجم الكلام بقوله: «سيدي الجنرال لقد دعيتك إلى المجيء بعد هذا الظهر...» غير أن تشرشل اعترض بقسوة قائلاً: «إنني لم أقل سيدي الجنرال ولا قلت دعوتك». واستطاع كولفيل أن يصمد بداية الاجتماع، وسمع ديغول وهو يعطي رده الأول، لكن عندما ترجم الرد إلى الإنكليزية، قاطعه ديغول الذي كان يجيد اللغة تماماً، لكنه يرفض أن يتكلمها، وقال: «أبداً ليس هذا المعنى الذي قصدت».

عند ذلك صرف تشرشل سكرتيره كولفيل، وطلب إليه أن يبعث بمترجم آخر. وجيء آنذاك، بأكثر الدبلوماسيين طلاقة بالفرنسية في وزارة الخارجية، الذي قطع الشارع بين مبنى الوزارة ومبنى رئاسة الحكومة راكضاً. وبعد عشر دقائق من دخوله إلى غرفة الاجتماع خرج أحمر الوجه، وقال لكولفيل: «لقد أصيبا بالجنون». وبعد ذلك أكمل الرجلان الحديث من دون مترجم، ومعهما فقط سكرتير يدون الملاحظات. بعدها بنحو ساعة كما روى كولفيل قائلاً: «حاولت أن أتنصت، لكن الأبواب المزدوجة كانت قد أغلقت، لم أستطع أن أسمع شيئاً. ودخلت إلى القاعة، وحاولت أن أجرب على رأسي قبعة الجنرال ديغول التي تركها في المدخل ولَكَمٌ فوجئت من مدى صغر حجم رأسه. حاولت أن ألهي نفسي بأي عمل، أو أتظاهر بأي عمل، لكنني لم أفلح. ثم قرع الجرس، فدخلت إلى الغرفة، لأجدهما وقد ظهرت على وجهيهما علامات الرضى. وكان ديغول، لأهداف تكتيكية طبعاً، يدخن إحدى سيجارات رئيس الوزراء، ويتحدثان بالفرنسية، وهو إغراء لم يكن تشرشل يستطيع أن يقاومه طويلاً».

في حين أن الأزمة السورية كانت أبرز هموم ديغول في صيف 1941، فإن انضمام الاتحاد السوفياتي إلى الحرب فتح أمامه إمكانات سياسية عدة، ما لبث أن استغلها بسرعة. فقد سارع ديغول بذكائه السياسي المعروف، إلى أن يلعب «الورقة الروسية» ضد حلفائه الآخرين. وهي إستراتيجية ظل يتابعها حتى أيامه الأخيرة في السلطة في العام 1969.

كان الجنرال ديغول مجتمعاً إلى ليتلتون، عندما شن هتلر هجومه في 21 حزيران/ يونيو 1941. وفيما كان ينتظر أن يدخل دمشق، بعد انتصار الفرنسيين الأحرار على قوات فيشي، بعث ببرقية تعليمات إلى لجنته في لندن في 24 حزيران/ يونيو يقول فيها:

«من دون حاجة في الوقت الحاضر إلى البحث في شهوات، بل في جرائم النظام السوفياتي، يجب أن نعلن مثل تشرشل، إننا بكل صراحة مع الروس، لأنهم يحاربون الألمان. حاولوا الاتصال بهدوء بالسفير السوفياتي في لندن إيفان مايسكي، وأبلغوه باسمي أن الشعب الفرنسي يقف مع روسية، وأننا نريد أن ننظم العلاقات العسكرية مع موسكو».

لماذا كان ديغول يستعجل لأن يمنح روسية هذا التأييد؟

طبعاً لأنه كان بحاجة إلى اعتراف موسكو بفرنسة الحرة. ولم يَطُلْ هذا الاعتراف أن يهل عليه. إذ بعد أسابيع قليلة تنقل موسكو سفيرها ألكسندر بوغومولوف من فيشي إلى لندن، لكي يصبح ممثل ستالين لدى الجنرال ديغول. وقد طرب ديغول لهذه الخطوة، لدرجة أنه عرض على السفير الجديد أن ينقل فرقتين من المشرق إلى الجبهة الروسية. كيف يستطيع أن ينقل هاتين الفرقتين وأن يجهزهما وأن يدربهما؟ أمر متروك له. غير أنه من خلال ذلك نجح في الضغط على تشرشل أكثر فأكثر. وبعد أسبوع من اللقاء مع السفير السوفياتي، يبعث إليه تشرشل بمن يبلغه أن الجنرال أوكينلك القائد الجديد في الشرق الأوسط، سوف يضم إلى قواته لواءً من الفرنسيين الأحرار في العمليات العسكرية الجارية في برقة (الآن الجماهيرية الليبية). لقد حققت «الورقة الروسية» نجاحها الأول. فالاعتراف السوفياتي دعم من مركز الفرنسيين الأحرار، وزاد من استقلالهم كقوة كبرى أكثر فأكثر ضد البريطانيين، وزاد من قوته السياسية، ومن عدد أتباعه في فرنسة نفسها. وكان موقف ستالين الحار من ديغول متناقضاً بصورة واضحة مع البرودة والعداء اللذين أظهرهما روزفلت والولايات المتحدة تجاهه، مع العلم أن أميركة ـ ومن ثَمَّ رئيسها ـ كانت قد بدأت آنذاك تنحني أمام الوقائع الجديدة الظاهرة أمامها، وتتجاهل عواطفها الحقيقية نحو ديغول.

بعث ديغول برسوله الأمين رينيه بلوفان إلى الولايات المتحدة في مهمة خاصة من أجل الدفاع عن قضية فرنسة الحرة. وقد أمضى الرجل نحو أربعة أشهر بين حزيران/يونيو وتشرين الأول/أكتوبر. لكن روزفلت رفض مقابلته. غير أن واشنطن على الرغم من ذلك قبلت عرض ديغول باستخدام الوسائل البحرية في المقاطعات الإفريقية الفرنسية. وأرسلت الحكومة الأميركية فرقاء اختصاصيين، للتفاوض حول استخدام المطارات عبر إفريقية الفرنسية، من أجل نقل المساعدات الجوية إلى البريطانيين في الشرق الأوسط.

وفي 4 تشرين الأول/أكتوبر منح بلوفان أخيراً مقابلة مع وكيل وزارة الخارجية سمنر ويلز في واشنطن. وكتب إلى ديغول يقول عن اللقاء: إن «ويلز كان بارداً جداً. إن الجميع هنا يعرفون أن ويلز وتلامذته يشعرون بأنهم أكثر دراية بالأمور من حلفائنا الإنكليز بل وحتى منا نحن بشؤون فرنسة».

أمر ديغول وحدة عسكرية من قوات فرنسة الحرة بإعادة احتلال المبنى بالقوة إذا اضطر الأمر، وبالفعل تجنب الفريقان تبادل الرصاص في اللحظة الأخيرة. وفي حادث آخر رفضت الشرطة العسكرية الأوسترالية بكل فظاظة السماح للجنرال كاترو بالدخول إلى مقر القيادة البريطانية. وفي كل مكان كان البريطانيون يتصرفون وكأنهم يريدون إبعاد الفرنسيين الأحرار. وحين تلقى ديغول تقارير من كاترو عن هذه المسائل، شرع في العودة إلى القاهرة التي وصلها بعد يومين في 20 تموز/يوليو. وكان يشرح في الطريق إلى العاصمة المصرية لجميع الحكام والقادة العسكريين الإنكليز «مدى خطورة المسألة» كما كتب في مذكراته فيما بعد.

وهذه المرة يجد ديغول في القاهرة شخصية بريطانية إضافية، إنه أوليفر ليتلتون الذي كان أول وزير تقرر حكومة الحرب إرساله إلى الخارج، لكي تشدد على أهمية المنطقة بالنسبة إليها. وقبل أن يتسنى للوزير الجديد، أن يستحم فعلاً، كان ديغول يمنحه حماماً حاراً من التأنيب. إذ خلال اجتماع استمر ساعتين ونصف بين الرجلين استنكر ديغول «الأساليب الرديئة والمهترئة» التي استخدمها الإنكليز في قيادة الحملة السورية، وانتقد الحكومة البريطانية لأنها تريد إبعاد المشرق عن فرنسة بعكس ما ينص عليه انتداب عصبة الأمم. وهاجم أيضاً حكومة تشرشل، لأنها لم تأخذ بالتوصيات التي بعث بها حول شروط الاستسلام، كما انتقد قرارها بمنع ضباطه من إجراء أي اتصال مع ضباط فيشي المستسلمين. وأوصل الهجوم إلى ذروته بأن سلم ليتلتون بياناً مكتوباً كان أعده من قبل، وينتهي بالكلمات الآتية: «إن فرنسة الحرة، أي فرنسة نفسها، لم تعد مستعدة لأن توكل إلى القيادة العسكرية البريطانية واجب قيادة القوات الفرنسية في الشرق الأوسط. إن الجنرال ديغول ومجلس الدفاع الفرنسي الإمبراطوري سوف يستأنفون قيادة جميع قوات فرنسة الحرة في المشرق ابتداءً من

ظهر الرابع والعشرين من تموز/ يوليو 1941». ولم يعرف ليتلتون المسكين كيف يرد على هذا الشلال المتدفق من الهجمات. وعلى طريقة الإنكليز عاد ببرودة إلى ذاكرته، فلم يجد سوى التعبير الدبلوماسي العتيق: «non venu» وخلاصته أنه حدث لم يسمع ولم يرَ، أي أنه لا يستطيع تقبل الاحتجاج بالطريقة التي قدمه بها ديغول.

وفي اليوم الآتي حدث ما يمكن أن يطري الأجواء قليلاً. فقد علم ليتلتون أن قوات فيشي قد اعتقلت 52 ضابطاً وشحنتهم إلى فرنسة. وعندها أمر فوراً باعتقال الجنرال دنتز وغيره من الضباط الفيشيين، إلى أن يتم إطلاق سراح الضباط الإنكليز. وهذا أرضى ديغول بعض الشيء، ثم وصل الرجلان إلى تسوية بشأن شروط الهدنة، كما سحب ديغول طلبه بسلخ القيادة من أيدي البريطانيين. وفي أثناء ذلك عين الجنرال كاترو مفوضاً سامياً أعلى لشؤون المشرق، لكن يبدو أن الأوان قد فات بالنسبة إلى ديغول في البحث عن جنود إضافيين في وحدات فيشي المتقهقرة، والتي كانت قد تركت المنطقة. وهكذا استطاع كاترو أن يجتذب 127 ضابطاً من قوات فيشي فقط، واختار ستة آلاف جندي البقاء في الشرق الأوسط، والقتال تحت راية ديغول، بينما أبحر 25 ألفاً عائدين إلى فرنسة.

في هذه المرحلة بدا وكأن الأزمة انتهت. غير أن ما يعرف بـ«المشكلة السورية» بين ديغول والإنكليز استمر ناراً تحت الرماد. فقد كان الإنكليز يضغطون عليه، كما يقول كاتب سيرته دون كوك، من أجل الإيفاء بتعهده بإعطاء الاستقلال للدولتين المشرقيتين سورية ولبنان، غير أنه استمر أيضاً معانداً، بأن التعهد لا يمكن تنفيذه قبل نهاية الحرب.

ولا شك في أن المسألة السورية قد أحدثت شرخاً كبيراً بين الفريقين بالنسبة إلى القضية المشتركة والهدف المشترك، إذ بصرف النظر عن الأخطاء التي يمكن أن يكون الإنكليز قد ارتكبوها، فإن تشرشل ومعه بالطبع حكومته، قد شعروا بالكثير من المرارة بسبب التهم التي أطلقها ديغول، وبسبب طريقته في معاملة ليتلتون والتهجم عليه.

بعد المواجهة مع ليتلتون عاد ديغول مجدداً إلى برازافيل في نهاية آب/ أغسطس، ليستعد للذهاب من هناك إلى لندن. لكن عشية سفره إلى العاصمة البريطانية أوصل العلاقات مع بريطانية مجدداً إلى حافة القطع، عندما أجرى حديثاً رسمياً مع مراسل أميركي يدعى جورج ويلر من صحيفة «الدايلي نيوز»، قال فيه:

«إن إنكلترة خائفة من الأسطول الفرنسي. وإن ما تنفذه إنكلترة الآن هو في الواقع صفقة حرب مع هتلر، تقوم فيها حكومة فيشي بدور الوسيط. حكومة فيشي تخدم هتلر بإبقاء الشعب الفرنسي خاضعاً، وبتقديم الإمبراطورية الفرنسية لقمة سائغة لألمانية. لكن لا تنس أن حكومة فيشي تخدم أيضاً إنكلترة بإبقاء الأسطول الفرنسي بعيداً عن أيدي هتلر. إن بريطانية تستغل حكومة فيشي بالطريقة التي تستغلها بها ألمانية.

إن ما يحدث بالفعل هو تبادل منافع بين دولتين عدوتين، بحيث تبقى حكومة فيشي على قيد الحياة، ما دامت بريطانية وألمانية متفقتين على بقائها».

هذه الطريقة في التفسير ازدادت غرابة عندما مضى ديغول يقول للصحافي الأميركي: «إنني لا أنوي إخفاء الحقائق بعد الآن. لقد عرضت على الولايات المتحدة الأميركية حق استخدام مرافئنا الرئيسة في إفريقية التابعة لفرنسة الحرة كقواعد بحرية ضد هتلر. لقد عرضت عليهم ذلك على أساس إيجار طويل المدى، وبالطريقة نفسها التي عرضت فيها بريطانية قواعدها الأطلسية على الولايات المتحدة. غير أنني لم أطلب أي مدمرات بحرية مقابل ذلك».

وصل ديغول إلى لندن في أول شهر أيلول/سبتمبر، وكأنه لم يقل شيئاً، ولم يدل بأي حديث، غير أن الأمر لم يدم طويلاً قبل أن يشعر ببرودة الجو في المدينة. وكان تشرشل قد أبلغ حكومته قبل ذلك قوله: «في ضوء سلوك ديغول المزعج في الأسابيع الأخيرة، فإن على الوزارات في الوقت الحالي أن تتبنى موقفاً حذراً نحو جميع المطالب التي تتقدم بها فرنسة الحرة. وبادئ ذي بدء منع ديغول لدى عودته من أن يلقي خطاباً متفقاً عليه في هيئة الإذاعة البريطانية، لكنه رد على ذلك فوراً بأن منع جميع الفرنسيين الأحرار من الإدلاء بأي شيء عبر تلك الإذاعة. ثم بعث برسالة خطية

إلى تشرشل يقول فيها إنه سوف يكون سعيداً إذا استقبل في 10 داوننغ ستريت. غير أن تشرشل بعث برد بارد يقول فيه «إن الدلائل التي تلقيتها عن موقفك غير الودي نحو الأمة البريطانية قد ملأتني بالدهشة والحزن، ومن الآن وإلى أن تتجمع لدي تفسيرات لذلك فإنني لا أعرف ما إذا كان أي لقاء بيننا سوف يكون مفيداً».

وقد استمر هذا الصراع إلى ما بعد خروج الألمان من المشرق بكثير ولم يكن ثمة شك لدى ديغول بأن بريطانية تتمنى الانتصار لأعدائه وتريد له السقوط «لقد كان البريطانيون، وخصوصاً تشرشل يتمنون أن أصاب باليأس ومن ثم أن يؤدي ذلك إلى سقوطي». وحين عرض عليه الإنكليز نقل التعزيزات الفرنسية إلى المشرق قال ديغول لداف كوبر، الرجل الذي قدم العرض: «إننا نشعر بأمان أكبر في نقل قواتنا بأنفسنا. وفوق ذلك فأنت تعرف أن المحافظة على النظام في المشرق هو أمر موكل إلى الفرنسيين، وإلى الفرنسيين وحدهم، ولا يحق للقيادة البريطانية في الشرق الأوسط أو للحكومة البريطانية أن تتدخل في المسألة».

ويروي ديغول في مذكراته أن السفير البريطاني كوبر اعترض على هذا الاعتراض قائلاً: «إن الجنرال بادجيت يتولى قيادة جميع القوات الحليفة في الشرق الأوسط بما فيها قواتكم».

ورد ديغول: «أجل، لقد وافقنا على ذلك. لكن العدو قد طرد من الشرق الأوسط منذ أكثر من عامين، ومن ثم فإن قواتنا في المشرق لم تعد خاضعة للقيادة البريطانية في أي حال».

واعترض كوبر مجدداً: «إن الوضع في سورية مرتبط بالوضع في العالم العربي كله وهو وضع أعطيت فيه بريطانية المسؤولية العليا».

وأجابه ديغول «في دول المشرق ليست هناك مسؤولية أعلى من مسؤولية فرنسة كدولة انتدابية. وإن سلوكك يدل على أنه على الرغم من التطمينات التي تقدمت بها حكومتك، وعلى الرغم من استدعاء سبيرس إلى لندن، فإن السياسة البريطانية لم تتغير. إنكم ما زلتم تصرون على الوقوف بين فرنسة وبين الدول الواقعة تحت انتدابها، ولذا فإن لنا الحق في الاعتقاد بأن هدفكم هو طردنا».

يقول ديغول إنه أمام ذلك هز المستر كوبر كتفيه ومشى غاضباً!

لكن الخلاف البريطاني ـ الفرنسي حول المنطقة لن ينتهي هنا، إنه سوف يستمر إلى الأبد، إذ بعد ذلك بأسابيع يبعث إليه تشرشل برسالة «تؤكد في أسلوبها ومحتواها» الخط الذي اعتمده مع الفرنسيين الأحرار في السنوات الماضية. فقد أعلن تشرشل مرة أخرى أنه «يعترف بوضع فرنسة الخاص في المشرق»، لكن هذا لا يمنع بريطانية من الاهتمام ببعض الشؤون في المنطقة، انطلاقاً «من التزاماتها وواجباتها». وبما أن تشرشل لم يعد قادراً ـ كما يقول ديغول ـ على التذرع الآن بأخطار هتلر وموسوليني على قناة السويس، «فقد تذرع هذه المرة بالحرب مع اليابان»، لذا طلب من ديغول التوقف عن إرسال الإمدادات العسكرية إلى القواعد الفرنسية في المنطقة، وإعادة القوات «الخاصة» إلى حكومتي دمشق وبيروت، «راجياً العمل على ذلك بسرعة لتجنب أي محنة تضاف إلى الصعوبات التي نمر بها».

لماذا طلب تشرشل ذلك أيها الجنرال ديغول؟

«لم أخدع نفسي لحظة واحدة في شأن ما طلب. فإذا كان المستر تشرشل يؤنبني بسبب إرسال تعزيزات من 2500 جندي فرنسي، إلى منطقة يتمركز فيها 60 ألف جندي بريطاني، سينضم إليهم قريباً 15 ألف جندي آخر، ومعهم 2000 طائرة مقاتلة، فذلك لأن الإنكليز كانوا على وشك إثارة فوضى كبرى.

وفي ردي على رئيس الوزراء شعرت أنه من الحكمة أن أشير إلى المسؤولية التي تتحملها بريطانية في تدخلها في شؤوننا، وإنها بذلك تضع عقبة كبرى في وجه أي اتفاق بين باريس ولندن. ولذا كتبت إليه أقول إننا اعترفنا باستقلال دول المشرق، كما فعلتم في مصر والعراق، وإننا نحاول فقط أن نؤلف بين هذه الأنظمة وبين مصالحنا في المنطقة. وهذه المصالح ذات طابع ثقافي واقتصادي. وهي أيضاً ذات طابع إستراتيجي... إننا مثلكم مهتمون بخطوط اتصالات مع الشرق الأقصى، ومهتمون أيضاً بأن تكون لنا سيطرة مستقلة على حصتنا في نفط العراق».

ثم يكشف ديغول عن مرارته من الحركة الاستقلالية في سورية ولبنان فيمضي قائلاً: «أعتقد أن هذه المسألة ما كانت لتثار، لولا أن حكومتي دمشق وبيروت لم تشعرا بأن

بإمكانهما الاعتماد عليكم من أجل التحرر من أي التزام. إن وجود «قواتكم، ونصيحة عملائكم يشجعانهما في هذا الموقف السلبي المؤسف. ويجب أن أبلغكم بأن دخول قوات بريطانية جديدة من فلسطين إلى لبنان هو أمر يدعو للأسف الشديد...».

لكن الأمور لم تسر كما شاء لها قائد فرنسة الحرة. بل إن «محنة جديدة بدأت بعد يومين فقط من هذه الرسالة، في 8 أيار/ مايو خلال احتفالات النصر في بيروت. فقد مرت في شوارع المدينة كتيبة من الجنود العرب الملحقين بالقوات البريطانية في فلسطين، وأخذت تطلق الإهانات لفرنسة. وبعد ذلك وقعت حوادث عدة ضد القوات الفرنسية في سورية، من دون أن تتدخل الشرطة لمنعها (...)، وبما أن القيادة البريطانية استمرت في تزويد الشرطة بالسلاح من دون موافقتنا، فقد أصبحت لدى السيد شكري القوتلي وحكومته قوة من 10 آلاف شرطي، وتحت تصرفها أحدث الأسلحة».

هذه القوة استخدمت أيضاً ضد الفرنسيين. وفي إثارة أعمال «الشغب». ويتساوى هنا ديغول مع أي محتل آخر. كل عمل استقلالي هو عمل «ضد» فرنسة. وكل حركة وطنية هي شغب واضطرابات، ولذلك سوف يؤرخ في الكثير من المرارة والأسى تلك المقدمات لاستقلال سورية، وسوف يرى طبعاً ظل بريطانية في كل مكان: «لقد هاجمت وحدات من الشرطة والمتظاهرين مراكزنا في كل مكان، مسلحة بالقنابل البريطانية الصنع».

لم يكن ديغول يقبل من الإنكليز حتى الوقوف على الحياد، «خلال ثلاثة أسابيع من التظاهرات لم يحرك الإنكليز ساكناً. ففي القاهرة ظل السير إدوارد غريغ، وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط، صامتاً وكذلك القائد الأعلى الجنرال بادجيت. وفي المشرق لم يقم الجنرال بيلو، قائد الجيش البريطاني التاسع بأي خطوة لتحريك القوات الكثيرة الموجودة تحت إمرته في المنطقة. وفي لندن نفسها ساد الصمت».

استمرت التظاهرات في دمشق ومدن سورية الأخرى، وظل ديغول يرى الشبح البريطاني، بل إن حكومة تشرشل استدعت سفيره في لندن، وحذرته من أن بريطانية لن تقف طويلاً مكتوفة اليدين تجاه ما يجري في سورية. والرجل الذي وجه التحذير كان أنطوني إيدن بالذات، الذي سوف يقوم في العام 1956 بالعدوان على السويس ومعه فرنسة!

ويروي ديغول أنه بعد ما توصلت فرنسة إلى وقف إطلاق النار في دمشق عاد تشرشل فوجه تهديداً آخر، «لكي يصور نفسه حامي العرب، وأملاً في أن تحدث هذه الصدمة هزيمة سياسية داخل فرنسة وربما سقوط ديغول».

إذاً، يقول ديغول، الإنذار البريطاني وجه بعدما أوقف الفرنسيون إطلاق النار في دمشق، وثانياً فإن أنطوني إيدن قرأ على مجلس العموم رسالة قال إن تشرشل بعث بها إلى ديغول، في حين أن الرسالة لم تكن قد وصلت إليه، إلا أن حملة «الإذلال» البريطانية للفرنسيين لم تتوقف هنا!

«ذلك النهار أيضاً جاء الجنرال بادجيت إلى بيروت، وسلم إنذاراً إلى الجنرال (الفرنسي) بينه. وقد أطلق الإنكليزي على نفسه في هذه الوثيقة لقب «القائد الأعلى في مسرح عمليات الشرق الأوسط»، مع العلم أنه على مساحة 10 آلاف ميل مربع لم يعد هناك جندي عدو واحد في كل هذا «المسرح». وقد أعلن أنه تلقى تعليمات من حكومته بأن يتولى القيادة العليا في سورية ولبنان، ومن ثم فهو يأمر السلطات الفرنسية «بأن تنفذ من دون أي معارضة»، أي أوامر يصدرها إليها.

وكان أول الأوامر أن توقف قواتنا القتال، وتنسحب إلى ثكناتها.

«وقد استخدم الجنرال بادجيت لمناسبة زيارته عرضاً عسكرياً استفزازياً إلى أقصى الحدود. فقد رافقت طائرته إلى بيروت أسرابٌ مقاتلة عدة، وتقدمه من المطار إلى مقر المندوب الفرنسي طابور من الدبابات، وسيل من السيارات المقاتلة، أقلت جنوداً كانوا يرفعون السلاح في وجه قواتنا لدى المرور بها.

«ولقد أبلغ الجنرال بينه الجنرال بادجيت أنه فيما يتعلق بالأوامر فإنه لا يتلقى أوامره إلا من الجنرال ديغول وحكومته. وقال له إنه قد أصدر أمراً بوقف إطلاق النار وفقاً لتعليمات تلقاها مني. وزاد: إن قواتنا في الوقت الحاضر سوف تبقى حيث هي، أما بالنسبة إلى القوات البريطانية فبإمكانها أن تذهب وتأتي حيث تشاء...

«وبالفعل سحب الجنرال بادجيت قواته في هدوء ومضى...».

لكن الستار لم يسدل طبعاً على ذلك النزاع التاريخي بين لندن وباريس أو بين ديغول والإنكليز.

obeikandl.com

الماريشال لايوتيه المغربي:
الحظ يطفئ النيران

من غرائب الصدف ـ أو ربما ليس من غرائبها ـ أن عهد العسكريين الفرنسيين بوصفهم مفوضين سياسيين في الخارج انتهى في المغرب في أواخر الخمسينيات. لقد قررت الجمهورية الخامسة يومها، أن الروح الاستعمارية قد انتهت في العالم، ومعها انتهى أيضاً دور البزّات العسكرية لدى الآخرين.

وفي المغرب أيضاً - في المغرب العربي عموماً - كان العسكريون قد بدؤوا منذ أواخر القرن الماضي، ذلك الدور العسكري ـ السياسي، الذي أوكلته إليهم تلك الجمهورية التي ورثت إمبراطورية، التي ورثت مملكة. ولعل أبرز الأسماء في حقبة ما بين الحربين، أي الحقبة التي يغطيها هذا الكتاب كان الماريشال لايوتيه.

إنه - أيضاً - كما قالت الأميرة مارتا بيبسكو ذات يوم: «الملكي الذي أعطى إمبراطورية للجمهورية». وهو أيضاً مرحلة انتقالية من القرن الماضي إلى النصف الأول من هذا القرن. وهو أيضاً من العسكريين الذين بنوا مجدهم السياسي في المغرب العربي، في المرحلة التي كان فيها غورو وكاترو وويغان وساراي يرسمون الدوائر السياسية على صفحة المشرق.

شيء آخر لا بد من الإشارة إليه قبل الدخول في سيرة لايوتيه: هو أيضاً، مثل ماريشالات وجنرالات فرنسة الآخرين، أدى خدمته العسكرية في ذلك الأتون المعروف باسم الهند الصينية. بل إنه من هناك جاء إلى الجزائر.

كانت الحرب بين الفرنسيين وأهل المغرب قد بدأت قبل زمن طويل. وفي العام 1880 في أعقاب ثورة «بو عمامة»، احتل العسكر الفرنسي منطقة «عين صفراء» الجبلية في الجزائر، وجعلوا منها مركزاً عسكرياً. وقد لجأ بو عمامة إلى المغرب، حيث ظل يحرض من هناك على الجهاد المقدس. وعبثاً حاول الفرنسيون بناء التحصينات في

وجه المقاتلين. وهكذا قررت حكومة فرنسة أن تحتل الواحة التي يأخذ المقاتلون منها المؤن، وعقدت من أجل ذلك «معاهدة مع حكومة المغرب».

لكن الأمور ازدادت سوءاً بالطبع. ما إن وصل حاكم الجزائر العام المسيو جونارت في العام 1903 حتى فقد 25 رجلاً من مرافقيه في كمين هائل. وهكذا فكر جونارت بأن يطلب المساعدة من ضابط كانت له الخبرة في قمع الحركات في الصين! اتصل بالكولونيل ـ آنذاك ـ لايوتيه واجتمع إليه، لكن لايوتيه تساءل: هل يجوز تعميم الأشياء؟ هل الأشياء في الصين مثلها على الحدود المغربية ـ الجزائرية؟

لم يتردد جونارت. نعم! وبعد ذلك بأسابيع تعرضت فرنسة لهزة هائلة جديدة. ففي 17 آب/ أغسطس1903 اقتحمت قوة من أربعة آلاف مقاتل المركز العسكري الفرنسي في «تاغيت»، ثم تلاها بعد أسابيع هجوم كبير آخر. وفي غضون ذلك كان الجنرال أندريه وزير الحربية يحضر في باريس مناورات لرشاشات جديدة، سوف تستخدم في جنوب وهران. وكان معه أيضاً المسيو جونارت. وفي نهاية المناورة التفت جونارت إلى الجنرال أندريه وقال: «إنني بحاجة إلى قائد كفءٍ هناك، وإني أعرف واحداً».

قرأ الكولونيل لايوتيه في الصحف عن منصبه الجديد. وقد التقى أحد الجنرالات الذين كانوا سابقاً في عين صغرا فقال له «هل تعرف يا صديقي المسكين ماذا ينتظرك في عين صغرا؟ إنها الجحيم عينه. إنك لن تستطيع شيئاً، لكنك سوف تُعد دائماً مسؤولاً. إنني أشفق عليك».

بعد رحلة طويلة وصل إلى عين صغرا «عاصمة وهران»، (الآن عنابه) الصحراوية، تسترخي وحيدة معزولة في واد من الرمال، بين تلك المرتفعات الرتيبة، وبين الأتون الصحراوي إلى الجنوب، إنها «مدينة صغيرة صحراوية جداً، عند سفح تلة ذهبية اللون، ترتفع فيها المآذن المقدسة، وتكثر فيها الحدائق الزرقاء الداكنة». بعد ذلك، الصحراء.

لكن في هذه الصحراء سوف يجد لايوتيه، الذي رقي إلى رتبة جنرال، سعادته! إن بعض الناس لا يستطيعون أن يعيشوا إلا حيث يهلك الآخرون. وقد كان لايوتيه

سعيداً في الصحراء كما كان سعيداً من قبل في غابات تونكين وأحراجها. والسبب أنه وحيد وسيد المكان. فقد كان جونارت، الرجل الوحيد الأرفع رتبة منه، بعيداً في مدينة الجزائر، بينما كان هو يملك وحيداً هذه المجموعة من الواحات والجرود الصحراوية. وسرعان ما عرف نقاط الضعف عند العرب، وكيف يحاول استمالتهم، «إنهم أناس فخورون بأجدادهم، يحبون النبلاء» ولذا فقد دهشوا عندما عرفوا «أن السيف الذي أحمله ورثته عن جدي الذي كان جنرالاً في جيش نابوليون».

ويقول لايوتيه إن هذا الأمر ساعده أيضاً عندما نقل إلى المغرب حاكماً عاماً فيما بعد، «فقد كان العرب يعجبون كثيراً بهذا الفارس الذي يرتدي عباءة سوداء مقصبة بالذهب كلما قام بزيارة السلطان».

وكان لايوتيه، بالنسبة إلى المنطق الفرنسي، رجلاً واقعياً يعيش في الحاضر. فقد جاء إلى المغرب ومعه بضعة مبادئ عامة، تكونت لديه في الهند الصينية وفي جنوب وهران، لكنه أيضاً كان مستعداً لأن يرمي هذه المبادئ بعيداً إذا ما تعارضت مع الوقائع المستجدة. وكان يردد دائماً: إن «الإنسان يحكم الطبيعة فقط بإطاعتها». وعلى الرغم من خلفيته السياسية والعسكرية والعائلية، فقد كان يجعل من الماضي «فقط أمثولة لما هو الآن».

بهذه القناعات انتقل من عين صفرا لكي يصبح حاكماً عاماً على شرق المغرب. وفي هذه الأثناء حدث أمران بالنسبة إليه: الأول: أنه تزوج من أرملة كولونيل آخر، والثاني: أن طلائع الحرب العالمية الأولى بدأت في الظهور، وفي 11 تموز/ يوليو رمت السفينة الحربية «بانزر» مرساتها في أغادير، كتحدٍ للسلطة الفرنسية على المغرب، لقد كان الصراع الألماني ـ الفرنسي على المغرب، يشبه إلى حد بعيد الصراع الفرنسي ـ البريطاني في سورية ولبنان، ولكن المسألة ما لبثت أن حسمت مؤقتاً عندما استطاعت فرنسة أن توقع معاهدة حماية السلطان.

إلا أنه فيما كان الفريقان يحتفلان بالمعاهدة، اندلعت في مدينة فاس حركة تمرد واسعة، وارتد الجنود المغاربة الذين كانوا يعرفون «بالطابور» ضد مدربيهم الفرنسيين،

فقطعوا رؤوسهم، ثم راحوا ينهبون المدينة مخزناً مخزناً. واشتد الأمر على السلطان عندما لجأ نحو 10 آلاف يهودي إلى قصره. وقام رأي يقول بقصف فاس، ورأي آخر بمهادنتها. وفي باريس عقد رئيس الحكومة ريمون بواريه اجتماعاً مع وزير الحربية ميللرنان وبقية الوزراء، قطعه كالعادة غداء فخم. واقترح البعض عدم إرسال جنرال إلى المغرب ليكون مقيماً عاماً هناك، وكان الرئيس فاليير من هذا الرأي، لكن فريقاً آخر تذرع بتردي الأوضاع في فاس، فاستسلم فاليير للنقاش، معلناً أنه اختار لايوتيه للمهمة.

استقل لايوتيه الباخرة إلى الجزائر من جديد، لكي يجتمع من هناك إلى المسؤولين الذين خلفوه. وكان عليه في أي حال أن يعمل بالتنسيق معهم، لأن جزءاً من مملكته، شرق المغرب، تفصله عن مدينة فاس مقاطعة «تازه»، التي لم يستطع الفرنسيون إخضاعها، ومن ثم لا يمكن الوصول إليها إلا من الأراضي الجزائرية.

من هناك اتجه لايوتيه إلى الدار البيضاء، حيث جمعته الصدف التاريخية بجنرال آخر من جنرالات الشرق، لكنه كان لا يزال آنذاك برتبة كولونيل: غورو!

وسأله لايوتيه فوراً: ماذا تفعل هنا؟

– «لا شيء، سيدي الجنرال. لقد وصلت إلى هنا مع كتيبة استعمارية، لكي نحل محل القناصة. وها أنا أنتظر المزيد من الأوامر».

وردَّ لايويته فوراً: «من الآن فصاعداً سوف تكون معي، وسوف تكون مسؤولاً عن فرقة الحرس، وإنني أترك لك أن تضع كل الترتيبات لحملتي على فاس». ومن هناك انطلق الاثنان، على الخيل، إلى الرباط.

وعلى أبواب المدينة التقى باثنين من الفرنسيين القادمين من فاس، فأعطياه لوحة عما يجري في المدينة، وأبلغاه أن القبائل التي سمعت بما جرى تنزل من الجبال واحدة بعد الأخرى! في هذه الأثناء خطرت له فكرة الحصار.

وخلال يومين وصلت قافلة المقيم العام إلى مكناس. وجاء إليه بعض الضباط يعتذرون، لأنهم لم يطلقوا مدافع التحية: «إن المدينة هائجة ولا نستطيع أن نخسر قذيفة واحدة، والثورة العامة في البلاد قد تبدأ بين لحظة وأخرى».

على بعد ساعتين من فاس جاء إليه ضابط الاستخبارات في المدينة القومندان دو لاموشار، وسأله لايوتيه:

- كيف الأمور هناك؟

- على أسوأ ما يمكن أن تكون، ولو أنك تأخرت إلى غد لما كان باستطاعتك أن تدخل المدينة. كل القبائل تنزل إليها، ولا شك في أننا سوف نحاصر. إن الضباط هنا يسبحون في بحر التفاؤل، لكن من جهتي فأنا أخشى الأسوأ.

وبعد ذلك بساعة رأى الموكب عاصفة من الغبار. وكان ذلك الجنرال مواني يه.

وقال لايوتيه: صباح الخير يا مواني يه. لقد سمعت أن الأمور ليست على ما يرام.

وأجاب مواني يه متعجباً:

- ليست على ما يرام؟ من قال ذلك؟ إنني طبعاً سعيد بمجيئك، لكن من الناحية العسكرية تمت تسوية كل شيء.

وسرعان ما بدت لهم قباب المدينة وأسوارها. وكان بين المستقبلين المسيو ريغينو، المقيم السابق. ولم يضع لايوتيه الكثير من الوقت، بل راح يعلق أوسمته استعداداً لمقابلة السلطان، وتقدم منه أحد ضباطه القدامى، الجنرال بورلار وقال له: «لقد فات الأوان يا سيدي الجنرال، فلو أنك جئت إلى هنا قبل أسبوع لكانت أساليبك الذكية قد نفعت... أما الآن فقد فات الأوان».

قال بورلار ذلك ثم أجهش بالبكاء، لكن لايوتيه اعتمر القبعة الإمبريالية، وخرج وسط أصوات الرصاص التي تسمع من بعيد! وسأل غورو أحد المرافقين ما هي هذه الأصوات فقال هذا: «لا شيء إنهم يسرقون بعض المشمش».

أقامت الجالية الفرنسية في تلك الليلة حفلة راقصة تكريماً للمقيم العام الجديد. ونحو منتصف الليل سمعت أصوات رصاص في الحديقة، فالتفت غورو إلى ذلك الرجل وقال: «هل هم لصوص المشمش من جديد؟»

لقد كان الهجوم على وشك أن يبدأ، وها هو الجيش الفرنسي المستعمر يجد نفسه محاصراً في مدينة من الأزقة الضيقة ونحو 90 ألف نسمة. وكان من الغباء العسكري طبعاً أن يخوض العسكريون القتال داخل المدينة، بل كان عليهم أن يخرجوا منها ثم يرتدوا إلى الدفاع. لكن كيف؟ لقد كان في قلب المدينة أيضاً مستشفى عسكري مليء بالمرضى، كذلك كان لايوتيه يخشى أن يقدم أحد على فتح أبواب السجون، أما المصدر الأكبر للخوف فكان من الثكنات العسكرية المليئة بالقوات التابعة للسلطان.

فوق هذا وذاك، كان هناك نحو 4 آلاف فرنسي في مدينة من 90 ألف فاسي.

لكن لايوتيه قرر ألا ييأس من «أسلوبه». وتحت دوي الرصاص دعا إلى اجتماع للعلماء والشرفاء، وقال أهل فاس إنهم أيضاً مع السلام، فهم التجار الذين يملكون المخازن التي تنهب، ولكن أي سلام؟ لقد فات الأوان.

وأخذت الثورة تشتعل. وكان باستطاعة المقيم العام أن يشاهد من شرفته كيف تتم محاصرة الكتائب الفرنسية الواحدة بعد الأخرى، لترغم بعدها على الانسحاب. وقرر لايوتيه أن المستشفى هو نقطة الدفاع الأخيرة، فأمر بالدفاع عنها، وبإحراق مقر المقيم العام لدى إخلائه. ودخل لايوتيه ليتناول طعام العشاء مع ضباطه. لقد عرف أن كل شيء قد انتهى. وتطلع إلى أحد ضباطه الذي يقرأ الشعر وقال:

- اقرأ علينا يا دروان شيئاً من شعرك، وشيئاً من شعر «فينيي»! وفيما راح دروان يقرأ الشعر، دخل عليهم المقيم السابق: ريغينو: طاب مساؤكم أيها السادة!

لكن لايوتيه عرف أنه جاء للاختلاء، به فقام عن الطاولة. وعندما أغلقا باب الغرفة المجاورة قال ريغينو: إن الحالة خطيرة جداً، أليس كذلك؟ ثم عاد هذا الديبلوماسي إلى الابتسام كأن شيئاً لم يكن، أما لايوتيه الذي كان قد مضى عليه يومان دون نوم فاستأذن لكي يدخل إلى فراشه، ولو لساعة واحدة.

لكنه عندما استيقظ، وجد أن الشمس قد طلعت. واكتشف أن التعب جعله ينام عشر ساعات متواصلة، غير أنه ذهل عندما سمع الهدوء يلف المدينة. واستدعى ضباطه على الفور، فشرحوا له أن «معجزة» قد حصلت. ذلك أن انسحاب الفرنسيين

من المدينة مكّن المدفعية من قصف المقاتلين. واستطاع كولونيل يعرف المدينة جيداً ويدعى مازيليه أن يتسلل إلى شمال المدينة، ويقصف المقاتلين من هناك. لكن هذه لم تكن طبعاً نهاية كل شيء. وعندما أمكن التجول في المدينة في الصباح، تبين أن ضابطاً وأربعين من رجاله قتلوا في موقع واحد.

على أي حال، كان لا بد من جبهتين بالنسبة إلى لايوتيه: الأولى سياسية، والثانية عسكرية. وقد أوكل الجانب السياسي إلى غورو، فعمد هذا إلى الدوران مع بعض الرجال حول المدينة، وألهى بذلك المقاتلين، الأمر الذي سمح للحامية بتلقي بعض المؤن والبريد. وقد كتب لايوتيه إلى صديقه الكابتن دو مون يشرح له ما حدث، فقال: إن السبب الرئيس كان استعباد عدد كبير من العمال، وتسخير عدد آخر، ولاحظ أن الطبقة الوسطى في فاس كانت متضررة هي أيضاً، ثم يضيف: «لكن السلطات العسكرية لم تر شيئاً من هذا، فقد عاملت الجميع سواسية. وهناك عائلات معروفة شعرت بأنها مهملة ومهانة، فأخذت تهاجر إلى طنجة بعيداً عن دوافع الألم هنا».

في تلك الرسالة أيضاً نرى سطراً غير مألوف إطلاقاً، حين يعدد لايوتيه المساعدات التي تلقاها من ضباطه ومن بعض الفئات... «وأيضاً من القنصلية الفرنسية التي قدمت إليّ مساعدات وإخلاصاً جماً. لقد جهلت السلطات العسكرية أيضاً هذا المصدر الأساسي للمعلومات! وإنني أجتمع كل يوم إلى وجهاء المدينة، وأصغي إلى شكاويهم، وغالباً ما أقرهم على ما يقولون. والحقيقة أنني من خلال هؤلاء فقط بدأت أستطيع إقامة بعض العلاقات مع القبائل، وبفضل هؤلاء توافر لغورو الآن بعض الوطنيين الذين يرافقون الطابور الذي يقوده».

غير أن فاس ليست المغرب كله، يقر لايوتيه. ويتذمر من أن الرحلة إلى الدار البيضاء تستغرق أسبوعاً كاملاً، في حين أن هناك زعماء كثيرين لا بد من مقابلتهم: الجلاوي، وسي عيسى بن عمر، ومتوغوي وغيرهم.

ثمة مشكلة رئيسة أخرى أمام لايوتيه: السلطان مولاي حافظ! فقد كان الجنرال يعتمد على هيبة السلطان لتهدئة خواطر الثوار. لكن مولاي حافظ كان يريد الاستقالة.

فقد كان رجلاً ذكياً، ويعرف أنه في موقع متناقض تماماً. في الحقيقة إنه وصل إلى السلطة كرمز للمقاومة ضد الأوروبيين، ولذا كان صعباً عليه الإقرار بأنه سلطان لمحمية. وقد شعر السلطان بالقلق من حركات التمرد في الأشهر الماضية، كما أنه كان يخشى أن يقتل على يد الجنرال موانييه. والآن لم يكن يريد شيئاً سوى التقاعد. خذوا السلطة وأعطوني التقاعد. ولكي يقبل بتوقيع معاهدة الحماية اشترط قبل كل شيء أن يسمح له بالانتقال من فاس إلى الرباط. أما الناس فلم يروا في هذا التصرف سوى رضوخ الفرنسيين واستسلامهم. «إنه أسيرهم». هكذا سرت الشائعة.

إلى ذلك، كان السلطان يعرف الوضع الدولي تماماً، كما كان يعرف متاعب فرنسة الداخلية. لديه جهاز إعلامي كفءٌ يترجم له كل يوم صحيفتي «لو ماتان» و«لو تون».

وعشية مغادرته قال له لايوتيه: «سوف نطلعك على التطورات برقياً»، فرد السلطان عن طريق مترجمه: «إن جلالته يبلغك امتنانه، لكنه يفضل أن يتلقى الأنباء من طريق وكالة هافاس».

في باريس كانت الكي دورسيه ترتعد من تخلي السلطان عن العرش... ليس من أجله طبعاً، لأن عدداً من الدول الأوروبية لم يكن قد اعترف بالمحمية بعد، غير أن لايوتيه كان قد هلك من محاولات الإقناع، وكان يعرف أن قرار السلطان نهائي! إذاً، المشكلة المقبلة هي موضوع الخلافة، فقد كان السلطان يريد الخلافة لأحد من أبنائه، لكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب صغر سنهم، ومن ثم الخوف من أن يسيطر «الوزير الأول» على الحاكم الصغير. وهكذا التفت إلى شقيقه، عبد العزيز الذي كان آنذاك في طنجة، ومولاي يوسف الذي كان في السابق حاكماً على فاس. ومع أن مولاي يوسف كان محترماً من الجميع، فإن المأخذ عليه كان «ضعفه» في مواجهة القبائل، غير أن الاختيار وقع عليه.

لحظة اتخاذ القرار أراد الفرنسيون أن يغادر السلطان البلاد على الفور، لكن الرجل الصلب أراد شيئاً آخر: أن يبقى في البلاد، ثم أن يؤدي فريضة الحج إلى مكة المكرمة، ويعود بعدها إلى الرباط! وفي محاولة لإقناعه أقام له لايوتيه في العاشر من

آب/أغسطس مأدبة عشاء حافلة جداً. وتلك الليلة قال السلطان للجنرال إن فرنسة أخطأت حين طلبت توقيع معاهدة محمية مع المغرب، فالإنكليز في مصر لم يتفوهوا بمثل هذه الكلمة، مع أنهم يمارسون «الحماية»، وكتب لايوتيه فيما بعد يقول إن الرجل كان في منتهى الذكاء والحنكة.

في اليوم الثاني تعمد السلطان أن يدمر أعصاب الفرنسيين وأعصاب وزرائه المستعجلين على ذهابه. وبين القصر والميناء تردد غير مرة ثم أقدم. وفي نهاية الأمر عندما صعد إلى سلم البارجة «دو شايلا»، أعطى رسالة التخلي إلى وزيره الأول... فكاد لايوتيه ينهار من الانفراج!

وتسلم الوزير الأول مولاي حافظ المقري الرسالة، وقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وله وحده المجد. فلتحل بركة الله على الرسول وسلالته، إلى خادمنا الحبيب ومستشارنا الأفضل الوزير الأول الحاج محمد المقري كان الله معه...».

منها ينتقل السلطان إلى تعليل الاستقالة بالأسباب المحلية: «لقد اخترنا أن نترك العرش والصولجان لأسباب تتعلق بصحتنا الجسمانية... وإنني أدعو للمسلمين أن يختار الله لهم حاكماً يكون ذا فائدة لهم».

ووجه السلطان إلى لايوتيه الرسالة الآتية:

«المجد له تعالى وحده. لا إمبراطورية دائمة سوى إمبراطوريته، إننا نتسقط دائماً أخبارك ونأمل أن تظل بصحة طيبة.

إننا نحب أن نعلن لفخامتكم أن جلالتنا الشريفية راضية في القلب، ومرتاحة في البال، وإنه من دواعي سرور جلالتنا، أن فخامتكم تستحقون الإطراء، لما لقيناه منكم أخيراً من ود وكياسة، مما يحملنا على شكركم الآن ودائماً (...)، وإذا كان الشعب قد اختار شقيقنا مولاي يوسف لأن يتسلم دفة القيادة، فلا مانع لدينا.

إنا نأمل أن يختار الله تعالى رجلاً يجمع في قلبه الخير للمنتخبين ولعامة الناس معاً!».

مرحلة جديدة تبدأ في صيف العام 1912: جديدة في تاريخ المغرب وفي حياة لايوتيه أيضاً.

فالسلطان الجديد، مولاي يوسف، لم يكن معروفاً كثيراً في أنحاء البلاد، ومن ثم كان محدود السلطة، فيما كانت تقوم في الجنوب ثورة أخرى ضد الفرنسيين، لقد كانت مأساة لايوتيه في الرباط «مثل قبطان يعطى قيادة سفينة غارقة».

على أي حال لم يكن حول ذلك القبطان سوى قلة من الرجال. لم يكن هناك مدير لشؤون المال، لم يكن هناك مدير للأشغال العامة، وكان مقر المقيم العام، الذي هو القنصلية الألمانية السابقة، رمزاً لحالة المسكنة الفرنسية آنذاك. وعندما أقام ذات مساء حفلة لتكريم الرئيس الجديد لمحكمة التمييز، هبت عاصفة اقتلعت الخيمة الإضافية التي أقامها، وأرغمت الناس على العودة إلى بيوتهم فوق البغال.

لكن لايوتيه، بديبلوماسيته لا بعسكريته، سوف يغير الكثير خلال عامين. وعندما أعلنت الحرب في العام 1914 كان مطمئناً لدرجة أنه استطاع أن يرسل معظم قواته إلى القتال، من دون أن يخشى خسارة المغرب.

غير أن هذا «الانتصار» لم يكن على المغربيين وحدهم، بل على الغريم الآخر، باريس، فقد كانت الكي دورسيه العدو الأول لكل مقيم عام. وكان لايوتيه بالذات يحلم منذ طفولته بأن يكون حاكماً مطلقاً في أي مكان. وها هو الآن في الرباط، يخاطب الرباط «من فوق»، من خلال السلطان. وهكذا ظلت الأمور بالنسبة إليه من العام 1913 إلى العام 1925، رجلٌ يخلط بين الديكتاتورية والديبلوماسية، بين الإنجاز والتعسف، بين الاستعمار والبناء.

لكن لعل أكثر صفاته أهمية كانت طاقته على العمل. طاقة طاغية قتلت كل شيء فيه، حتى الحاجة إلى النوم. ويتحدث أحد ضباطه في مذكراته عن يوم رهيب في المغرب، ترأس لايوتيه خلاله مجلس الحرب، ثم مجالس الوجهاء، قطع مئات الكيلومترات يجتمع إلى القبائل. ثم عاد يملي البرقيات إلى باريس حتى الثانية صباحاً، وأخيراً، في نهاية ذلك الليل، القصير، نادى لايوتيه الضابط المسكين، فهرع هذا إليه مسرعاً: ما الخطب يا سيدي الجنرال؟

الخطب؟ أجاب لايوتيه: ألا ترى أنني مصاب بالضجر؟!

هذا الرجل يحفظ له الفرنسيون أيضاً أنه بعد ثلاثة عشر عاماً من الحكم المطلق في بلد بعيد، عاد إلى بلاده وهو أكثر فقراً مما كان يوم غادرها. وثمة قيم كثيرة حاول أن يمارسها. وغالباً ما كان يتفقد الرباط أو فاس في الليل وهو على جواد، لا يرافقه سوى مترجم، يسأل الناس والتجار عن أحوالهم. وكان يحاول دائماً ـ كما تقول الرواية الفرنسية على الأقل ـ ألا يغذي الانطباع بأنه في بلد مستعمر، فكان يظهر كل احترام للدين الإسلامي وللمؤسسات والقادة والباشاوات. وقد حفظ جيداً ما قاله له القنصل غايار: «عندما أخاطب فلاحاً مغربياً، فإنني أخاطبه مثل فلاح فرنسي، وعندما أخاطب بورجوازياً مغربياً، فإنني أخاطبه مثل بورجوازي فرنسي».

وبقدر ما كان يطمح إلى فرض الثقافة الفرنسية على المملكة، حاول أيضاً أن يحترم كل تقليد وتراث، وخصوصاً في الهندسة المعمارية. وكان شعاره الدائم «إن العنصرين الأساسيين في كل مستعمرة هما: حرية التجارة، وغياب الشرطة».

ويروي غليوم دو تاردي كيف كشف لايوتيه مرة عن عواطفه تجاه باريس: «كان يقوم في أحد الأيام بزيارة مركز فرنسي صغير. وقد أعجب كثيراً بذكاء الشاب الدليل الذي كان يرافقه. ونظر لايوتيه إلى مساعده وقال: إنه لشاب ممتاز. يجب أن نعينه مراقباً مالياً! فرد المساعد: مستحيل سيدي الجنرال، إنه يافع جداً ولا خبرة له، وأنت تعرف القوانين! وانفجر الجنرال قائلاً: إذاً، يجب أن تترك هذه الطاقة المتحركة تدفن في مركز صغير. يا للسخف. كأنما لدينا رجال كثيرون. ومن أين تأتي هذه القوانين؟ من باريس طبعاً! لكن ما قد يصح بالنسبة إلى باريس والوزراء النائمين نحتقره، نحن هنا حيث يجب أن نبتدع كل شيء. إني لا أعرف كيف تؤمن بذلك، لكن هذا الشاب يجب أن يعين مراقباً على الفور».

كان لايوتيه يتقدم وكذلك كانت الحرب. وعندما ساءت الأمور بالنسبة إلى باريس أخذت هذه تبحث عن وزير جديد للحربية، وصدر مقال في صحيفة «الصامد» يقول: إن اثنين من الفرنسيين على الأقل قد أثبتا مهارة في التنظيم: إدوار هريو رئيس بلدية

ليون، ولايوتيه في المغرب. وكان هذا رأي الحكومة أيضاً، التي أبرقت إلى لايوتيه في هذا الوقت تستدعيه.

غير أن الأمور في المغرب كانت أيضاً تتخذ منحىً جديداً. فقد استغل الألمان حركة التمرد في الجنوب، وأنزلوا بعض الغواصات على الأطلسي. وعندما تلقى هو برقية الكي دورسيه كان قد أرسل بدوره برقية تقول: «إن الوضع في المغرب خطر». وتحدث عن احتمالين، الأول: أن يقصف الألمان الدار البيضاء والرباط «في أي وقت الآن، وقد يترك ذلك آثاراً سيئة في الوضع الداخلي». والاحتمال الثاني: أن يعمد الألمان إلى إنزال قواتهم في مقاطعة قائد الحركة (الهبا)، والتحريض على حملة ضد الفرنسيين تبدأ في الجنوب.

في ضوء ذلك، بماذا يرد لايوتيه على البرقية الآتية من الحكومة؟ لا شك في أن العرض مغرٍ. وقد كان يطمح منذ زمن أن يؤدي دوراً مهماً في تاريخ فرنسة. لكن هل هذا الوقت المناسب لعودته؟ هل يستطيع أن يفرض إرادته على الائتلاف الحاكم، أو أن يحقق الانتصار المنشود، وقد انهارت جبهة الشرق بسقوط رومانية واليونان؟ وهكذا، أبرق إلى حكومته يبلغها أنه تحت تصرفها، لكن يجب أن تدرس قرارها في ضوء الوضع في المغرب. وردت الخارجية ببرقية صباح اليوم الثاني: ماذا لو تم تعيين غورو خلفاً لك هناك؟

غورو؟ إنه الرجل المناسب تماماً، لكن يجب أن أنتظر وصوله إلى هنا لكي لا يحدث خلل في القيادة!

في هذا الوقت كان غورو يقود الجيش الرابع في «شامبانيا». وقد اعتذر طويلاً عن قبول المنصب الجديد. وفي 13 كانون الأول/ ديسمبر 1916 تلقى لايوتيه بلاغاً رسمياً بتشكيل الحكومة الجديدة.

رئيس الحكومة وزير الخارجية: بريان.

العدل والتوجيه العام: فيفياني.

المال: ريبو.

الداخلية: مالفي.

الحربية: لا يوتيه.

البحرية: الأميرال لاكاز.

الاقتصاد الوطني، التجارة، الصناعة، الزراعة: كليمنتل.

النقل والمؤن العسكرية والمدنية: هريو.

المستعمرات: دوميرغ.

الذخيرة والصناعة الحربية: ألبير توماس.

تظهر هذه اللائحة كيف كانت تشكل الحكومات زمن الحرب. لكن لايوتيه غضب من أمرين، الأول، أنه لاحظ أن وزارة الحرب قد فككت، والثاني: أن قرار تعيين غورو لم يلحظ أنه «مقيم عام مؤقت» فقط. وكتب إلى بريان يعترض على الأمرين، فرد هذا يعتذر عن الاضطرار بالنسبة إلى الأمر الأول، أما غورو فهو مقيم مؤقت لا أكثر.

كانت وزارة الحربية سلسلة من المرارات بالنسبة إلى لايوتيه. فالحلفاء كانوا يطعنون بعضهم بعضاً، والتنسيق بينهم كان غائباً. وعندما ذهب مع بريان لحضور مؤتمر روما الشهير في العام 1917. تبين له أكثر فأكثر مدى التفكك، وخصوصاً مدى اليأس من وزارته. فقد أصرّ منذ بداية الحرب على قيادة واحدة لجميع الجيوش الحليفة، لكن ها هو بعد ثلاث سنوات يرى تلك القيادة في أيدي مجموعة من المدنيين والعسكريين، الذين لا يجمع شيء بينهم. وقد اختلف بصورة خاصة مع رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج حول الصلاحيات الواجب إعطاؤها إلى الجنرال ساراي، قائد حملة سالونيكا آنذاك (المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان فيما بعد)، وكانت علاقة لايوتيه بساراي سيئة جداً قبل الحرب، لكنه بصفته وزيراً للحربية أعطاه كل الدعم الذي يريد. وعندما استدعى المؤتمر الجنرال ساراي إلى روما، اتجه لايوتيه نحوه مباشرة، وأمسك به من ذراعه قائلاً: «تستطيع الاعتماد عليّ. قل لي ما تحتاج وسوف أبذل جهدي». وقد كتب ساراي عن خصمه السابق قائلاً: «لقد كان الجنرال لايوتيه قائداً، وحتى رفيقاً بالنسبة إلي». أما بالنسبة إلى المؤتمر نفسه فقال: «يقول البلاغ الرسمي إن ثمة اتفاقاً تاماً بين الحلفاء. ليس هناك من اتفاق. ولا قرارات هناك. لا شيء سوى الكلام والمزيد منه».

بعد مدة وجيزة استقال لايوتيه وسط جلسة برلمانية عاصفة، وعاد إلى منزله في شارع بونابرت. وكانت تلك أيضاً رصاصة الرحمة بالنسبة إلى حكومة بريان الهزيلة، فقد انهارت بعد الاستقالة بيومين.

واستدعاه رئيس الحكومة الجديد، المسيو بيو كي يسأله عن مشاريعه للمستقبل، فقال لايوتيه: لا شيء. إنني أنوي الذهاب إلى فيشي لبعض العلاج (من الكبد)، وبعدها أعود إلى الجبهة!

وسأله بيو: وماذا عن المغرب؟ ألا تنوي استئناف مهمتك هناك؟

عاد لايوتيه إلى المغرب، الذي سيدخله التاريخ الفرنسي. وقد بقي هناك حتى العام 1925، ويوم عاد إلى فرنسة، لم يجد أحداً في استقباله. إنها عادة فرنسة مع جنرالاتها.

obeikandl.com

من يربح الجو يربح الأرض أيضاً

كان هناك أيضاً جنرالات في الجو!

فالأرض لم تكن وحدها تشتعل في الحربين، بل كان قد أطل في السماء في الحرب العالمية الأولى جسم غريب اسمه الطائرة، وها هو الآن، في الحرب العالمية الثانية يتحول إلى أسراب من الطائرات تملأ الأجواء أزيزاً وتقرر الساحة بعيداً، من هو المنتصر على الأرض وكيف؟

وكانت أرض المعركة تبدو مختلفة من فوق عما يراها الناس من تحت، تماماً مثل روما القديمة. فالدبابة لم تكن ترى أكثر من مسافة مئة متر، والجنود المشاة لم يكونوا يرون أكثر من أنوفهم وخنادقهم ورؤوس بنادقهم. أما تلك الطائرات الحديثة العهد، الكثيرة الضجيج فقد كان في إمكانها أن ترى أمامها مدّاً منبسطاً على مدى ألفي ميل.

ذلك كان حوض المتوسط، من أقصاه إلى أقصاه، أو من بدايته إلى نهايته. وفي حزيران/ يونيو من العام 1940. كان كل هذا الحوض يستحم تحت شمس دافئة، وفي مياه عميقة كثيفة الزرقة: من الجزائر إلى لبنان، وثمة منطقة واحدة كان يربط بينها رذاذ المتوسط أو موج الأطلسي ـ أو العكس ـ حيث تتداخل مياه المحيطين في مضائق تصغر أو تكبر، وتنتهي في حوض واحد في مساحة تمتد من المغرب العربي إلى سواحل فرنسة وإسبانية ومن ثم إلى الساحل الإيطالي الطويل، وإذ يضيق هذا الممر المائي ثانية فإنه يمر عند رأس البر التونسي، ثم يمتد إلى صقلية، حيث تنفتح هذه القناة المثلثة على المتوسط الأرحب: إلى الجنوب، تضرب الأمواج برتابة عجيبة سواحل إفريقية السفلى، وإلى الشمال تتكئ إيطالية على جبال ألبانية عبر مضائق أورتانتو. وإذا نظرت شرقا رأيت خوراً من المياه يربط بين رأس البر اليوناني والجزء الليبي من إفريقية عند منبسطات بنغازي. وعلى النصف الشمالي من المتوسط تقع

سواحل يونانية أخرى، وسواحل تركية امتداداً حتى الجزر الإيجية فبوابة الدردنيل المحروسة مثل قصر، وتمضي جنوباً فترى المتوسط يتسع ويستطيل عند بلاد المشرق، حيث ترتفع سطوح القرميد الحمراء في بيروت، وتبدو من البعيد بساتين البرتقال في صيدا وصور. وعند الزاوية القصية منه تلتقي إفريقية وآسية في مجاهل سيناء، حيث تربض على مقربة منها مدينة بورسعيد، حارسة تلك القناة التي تربط الشرق بالغرب، وعلى مسافة قليلة من هناك كانت الإسكندرية، تلك المدينة التي تشبه في مطلها على البحر الأزرق، شيئاً من الريو دو جانيرو.

هذه كانت صورة الأرض، صورة هذه البقعة الجميلة من الأرض، كما تبدو من الجو، لكن من بين زرقة المياه وسطوح القرميد الأحمر كانت تبدو أيضاً أعلام فرنسة وأعلام بريطانية، فيما كانت الحرب تزحف ببطء على الساحل الإيطالي! لم تكن الحرب قد وصلت بعد إلى حوض المتوسط، بل كانت لا تزال على بعد 400 ميل، حيث الفرق الفرنسية المتعثرة تقف في مواجهة الألمان من الحدود الشرقية بين البلدين، حتى القناة الإنكليزية. وكان الزحف الألماني الهادر قد أطاح بالنروج، وتخطى هولندا. وأخذ الفرنسيون يتراجعون، بينما كان الإنكليز يحاولون التقاط أنفاسهم بعد هزيمة دانكرك. لكن قلب البريطانيين كان أيضاً على الإمبراطورية، وليس فقط على بريطانية، وكانت عيونهم على المتوسط وقناة السويس ومصر، تلك البوابة المهمة إلى مصر، بل أكثر من ذلك، البوابة المهمة إلى النفط في العراق وإيران.

لكن كي تقطع بريطانية الطريق على الزاحفين نحو الإمبراطورية، كانت بحاجة ماسة إلى إيطالية! غير أن إيطالية، بدهائها التاريخي المعروف، كانت قد حزرت ثلاث مرات في السنوات التسعين الماضية من سيكون المنتصر في الحرب، ووقفت إلى جانبه، وفي حزيران/ يونيو 1940 لم يكن صعباً على إيطالية أن تحزر من هو الرابح، فالفرنسيون كانوا يقفون على شفير الهزيمة، وهذا الأمر سوف يسهل على الإيطاليين الوصول إلى نيس والسافوي وكورسيكا. غير أن أحلام إيطالية كانت أكبر من ذلك بكثير: لقد كانت تريد إمبراطورية!

فالحبشة لم تكن كافية بالنسبة إليها. ومصر كانت إقليماً رائعاً يمكن أن يسد الفراغ بين صحراء ليبية والمرتفعات الإيطالية في شرق إفريقية. لقد كانت المكاسب واضحة بالنسبة إلى روما، أما الخسائر فلا أهمية لها.

ومع اقتراب نهاية حزيران/يونيو كان الدوتشي موسوليني قد اتخذ قراره، وها هو ظل إيطالية الطويل يخيم الآن على كل المتوسط.

في الجانب الآخر، عند البوابة الغربية للمتوسط، كان البريطانيون يحكمون قبضتهم على جبل طارق. وكان الجنود الإنكليز يختبئون وراء مدافعهم، أو يزرعون شوارع تلك الصخرة المعلقة في البحر. من فوق هذه الصخرة، كان الإنكليز يراقبون كل شيء، ويصل مدى أنظارهم عبر الأندلس المتعبة بالحرب الأهلية، لكن في البعيد كانوا مطمئنين إلى وجود العلم الفرنسي المثلث على ساحل الجزائر.

من الجو يبدو لك أن المتوسط آخذ في الاتساع. وعلى بعد 200 ميل خلف جبل طارق يتصل سطح المياه الإسبانية من جديد بالحوض الغربي للمتوسط، وكانت كل هذه الفسحات المائية الواقعة بين إيطالية وإسبانية، في أيدي الحلفاء. إذ من الجهة الشمالية كانت تمتد فرنسة على ساحل المتوسط الشمالي، من جبال البيرينه إلى جبال الألب، ثم تواجه الجزائر عبر 400 ميل من المياه. وكانت السفن المبحرة جنوباً تتجه بأمان من مرسيلية إلى قناطر الجزائر البيضاء، محتمية بالساحل الجزائري. لكن المياه كانت تضيق حين تصل إلى الكثبان الأولى في أرض تونس. والحقيقة أن سردينيا لم تكن تبعد أكثر من مئة ميل عن حافة إفريقية. وكان الساحل التونسي الآمن يواجه صقلية على مدى 80 ميلاً، ومن ثم كان واضحاً أنه بإمكان القادة السياسيين في إيطالية أن يقطعوا المتوسط إلى نصفين.

لا نزال، إذاً، نتطلع من الجو:

وسوف نرى هنا حقيقة أخرى في هذا الحوض الكبير: إنها مالطة التي تقع على بعد 60 ميلاً من إيطالية، وعلى بعد 800 ميل من أقرب قاعدة بريطانية. كانت الجزيرة تبدو حقاً مثل مدينة البندقية وهي تستحم مثل غيرها في دفء

المتوسط، لكنها كانت أيضاً في منتصف الطريق بين جبل طارق وبورسعيد بالنسبة إلى البريطانيين. والذي يستطيع أن يحض مالطة ضد الهجوم، يستطيع أيضاً أن يعرقل تحرك القوات الإيطالية من القارة الأوروبية إلى طرابلس (ليبية). لكن البريطانيين الكثيري الحذر عمدوا إلى سحب قواتهم إلى الإسكندرية، كما أنهم تمنعوا عن استخدام مالطة حتى ولو قاعدة جدية، بسبب قربها من البر الإيطالي. وهذا الحذر جعل مسألة الدفاع عن مالطة، بدورها، قضية صعبة؛ لأنه لم يكن من الممكن إيصال المؤن إليها إلا بحراً. فإذا استطاع الإنكليز البقاء في مالطة فإنه يمكن بقاؤها بوابة إلى الشرق، لكن ما إن تخلوا عنها بسبب قربها من إيطالية حتى أصبحت مثل محطة مهجورة على طريق مهجور.

كانت الطريق البحرية إلى السويس تمر بصقلية. وكان ذلك يعني أن قوافل الحلفاء سوف تكون تحت رحمة الإيطاليين أيضاً. وقد كانت تلك ـ ومن ثم ـ العلة الكبرى في قناة السويس، أي مسألة الوصول إلى القناة نفسها عبر المضيق الصقلي، وعلى مدى قريب من المقاتلات الإيطالية الرابضة على الشواطئ! إذاً، لم يتغير شيء. العامل الجغرافي لا يزال هو الأهم كما قال لنا البروفسور هولاند روز في كتابه «المتوسط في الحروب القديمة 1933»، لقد كانت المواقع الإيطالية تسيطر تماماً على جانبي الطريق البحري المؤدي إلى المتوسط. ففي هذه المرحلة كان جزء كبير من المغرب العربي في يد فرنسة، لكن الساحل كله من طرابلس إلى حدود مصر كان في يد إيطالية، وكان موسوليني يحلم بإكمال الطريق حتى السويس.

فالواقع أن الساحل الجنوبي من قلب المتوسط كان ليبيةً. وكان المؤرخ الأول هيرودوتوس قد حذر قبل مئات السنين «من أن أرض ليبية لا يمكن مقارنتها بأوروبة أو آسية»، ولذلك يصعب على الغزاة احتلالها. وها هي ولاية طرابلس الآن في أيدي الإيطاليين الذين كانوا احتلوها في العام 1911. وقد رفع الحاكم الإيطالي فوق مكتبه في طرابلس شعار: لا حدود للإمبراطورية الرومانية، لكن الحقيقة أنه من الناحية الإستراتيجية كانت حدود ليبية الأمامية بالنسبة إلى الحلفاء: البحر وتونس ومصر، أما حدودها الأخرى مع الصحراء والسودان فلم تكن مهمة كثيراً، لخلوها التام من

المياه. وهكذا وزع المارشال الإيطالي «غرازياني» ما يملك من الأسلاك الشائكة في وجه البريطانيين على الحدود مع مصر. أما مصر نفسها فكانت بالنسبة إلى الإنكليز كل شيء في المنطقة. بل إن أهميتها كانت واحدة بالنسبة إلى الشرق والغرب معاً. فهي تقع «على معابر طرقات عدة في البر والبحر»، فتشكل مدخلاً إلى أوروبة في المتوسط، وتشكل مدخلاً إلى المحيط الهندي من البحر الأحمر، تماماً مثل مضيق الدانوب بالنسبة إلى الحرب بين فرنسة والنمسا.

بكلام آخر، كانت السيطرة السياسية على مصر تعني السيطرة على الشرق. إذ من أجل الوصول إلى الهند لا بد من أن تنتظر في مصر أولاً بعض الشيء. وقد كان هذا حلم نابوليون من قبل في العام 1798، غير أن الإنكليز دمروا له الحلم عندما دمروا أسطوله في معركة النيل. ولم ينس الإنكليز تلك الأيام الدرامية حين أخذ نلسون يبحث عن أسطول نابوليون في عرض المتوسط، ومن ثم فإن مصر سوف تظل بالنسبة إليهم نقطة حيوية جداً من الناحية الإستراتيجية.

وكان أمن مصر أحد الهواجس الرئيسة لرجال السياسة البريطانيين في القرن التاسع عشر. إنها - أي مصر - حارس الطريق الأمين إلى الهند. وكان هناك في الواقع طريقان أمام بريطانية إلى «جوهرة التاج»: الأول: هو الطريق البحري الطويل عبر جنوب الأطلسي، ثم على طول الساحل الإفريقي، وصولاً إلى المحيط الهندي بالإبحار حول رأس الرجاء الصالح. أما الطريق الثاني والأقصر مسافة: فكان عبر المتوسط والبحر الأحمر مروراً بقناة السويس.

لذلك كانت مصر ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى بريطانية. ومع أن الإنكليز كانوا ينفون تكراراً أنهم ينوون ضم مصر غير أن أحد وزراء الملكة فيكتوريا كتب ذات مرة يقول: «إننا لا نريد مصر، لأنفسنا. لكن مصر بالنسبة إلينا محطة حيوية مثل خانات المسافرين على الطريق: فيها نستريح، وفيها نأكل، وفيها نعيد إسراج الجياد». وإذا كان اللورد بالمرستون قد رفض «ضم» مصر، فإنه وجميع من خلفه كانوا واضحين في أنهم لا يريدون أيضاً لمصر أن تقع في يد أي قوة أخرى. وقد أصبح شعاراً غير مكتوب لدى الإنكليز أنه لن يسمح لأي دولة بالسيطرة على هذه «المنارة» الواقعة في منتصف

الطريق، ومن هنا كان بالمرستون أول من وقف ضد المشروع الفرنسي لشق القناة بين السويس وبورسعيد، لأنه اعتقد أن فرنسة ستسيطر آنذاك على «طريق الاتصالات بين إنكلترة والهند البريطانية»، وأنها ستقيم بين سورية ومصر حاجزاً مائياً تدعمه بالدفاعات العسكرية، وسوف تصبح القناة فيما بعد جزءاً من حياة الإنكليز، وخرافة من أساطيرهم، لدرجة أن أحد قادة السلاح الجوي البريطاني أعلن أن «مفتاح الإمبراطورية هو المتوسط... لسبب بسيط وهو أنه يؤدي إلى القناة».

لقد كتب هيرودوتس قديماً أن مصر هي بلد التناقضات، ومن ثم فإن المؤقت سرعان ما يصبح دائماً، وهكذا كانت الحال بالنسبة إلى أول فرقة «استطلاعية» ذهبت إلى مصر في العام 1882، إذ سرعان ما حول الجنود البريطانيون القاهرة والإسكندرية إلى موطن لهم. ومنذ ذلك الوقت كان في صلب الإستراتيجية البريطانية أن تظل دفاعات وادي النيل في منتهى القوة. فتلك المنطقة لم تكن تغطي فقط الطريق القصير إلى الهند، بل تشمل أيضاً الممر الطويل إلى «الكاب» عبر إفريقية. وكان أول امتحان دخلت فيه بريطانية حول القناة في الحرب العالمية الأولى عندما دافعت عن مصر ضد هجمات الأتراك، لكن الوضع سوف يكون مختلفاً الآن، وقد كثر المهاجمون والطامعون، كما يقول فيليب غوديللا في كتابه «درس في القوة الجوية».

مع قدوم الحرب العالمية الثانية، لم تفقد مصر شيئاً من أهميتها الإستراتيجية بل العكس. إنها الآن تحرس شيئاً أكثر أهمية بكثير من الطريق إلى الهند: النفط! فالحرب تعتمد قبل أي شيء آخر على الحركة. وفي السنوات الأخيرة صارت كل حركة تقريباً تعتمد على النفط. لا طائرة تستطيع أن تحلق، ولا مدرعة تستطيع أن تسير، ولا باخرة تستطيع أن تبحر من دون نفط. والافتقار إلى النفط يمكن أن يشل تماماً السلاح الجوي لأي بلد، وأن يشل الجيش، ويعيق تحرك أي أسطول. وبما أنه لا يمكن الانتصار في الحروب بواسطة الدبابات المعطلة أو الطائرات المشلولة، فقد أصبح الوصول إلى النفط الآن مشكلة عسكرية من الدرجة الأولى. وهذه المشكلة كانت تواجه بريطانية بالذات. ذلك أن خمسة أسداس ما يستهلكه العالم من النفط كان ينتج خلف الأطلسي، ونصف هذه الكمية كانت تأتي من روسية ورومانية، اللتين يصعب الوصول إليهما. ومن ثم كان لا بد لبريطانية من أن تحصل على النفط من العراق وإيران.

بكلام آخر كانت المنطقة الممتدة من الموصل إلى الخليج العربي شيئاً بالغ الحيوية، بالنسبة إلى دولة تعتمد على السلاح الجوي تماماً، كما كانت السويس مهمة بحرياً. وكما كانت البحرية البريطانية متمحورة ذات مرحلة حول مالطة، ها هو السلاح الجوي البريطاني يتركز في مصر، ويقيم منشآت جوية في العراق. غير أن الدفاع عن العراق ضد عدو أوروبي لم يكن يبدأ في آسية لأنه لا يمكن لأي مهاجم الوصول إلى هناك مرة واحدة. إذ كان للدفاع عن العراق (بالنسبة إلى بريطانية) لا بد من صمود عسكري في سورية وفلسطين. ومن أجل النجاح في بلدان المشرق، لا بد من النجاح أولاً في مصر. ولم تكن بغداد تبعد عن القاهرة أكثر من 800 ميل.

كانت بريطانية تحكم القبضة العسكرية جيداً على مصر، وكانت تأمن جانب الصحراء في سيناء، لأنها تسيطر على فلسطين، لكن إلى الغرب، وعلى بعد 300 ميل من الإسكندرية، كانت الحدود المصرية تحاذي ليبية، أي الاحتلال الإيطالي.

لقد كانت «الصحراء الغربية» أكثر الأراضي صعوبة واستحالة، لكن من أجل الدفاع عن مصر لا بد للمعركة من أن تجري هناك إذا ما شن الإيطاليون هجومهم من ليبية. وكان ثمة خوف أيضاً من أن يصل الإيطاليون إلى كينيا بسبب تعزيزاتهم وحشودهم في الحبشة وأريترية.

بكلام آخر كان لا بد للإنكليز من المحافظة على وادي النيل بأي ثمن، على الرغم من المشكلات الكبيرة التي تعترض ذلك. ولم يكن الخوف من الناحية البحرية كبيراً، لأن الأسطول الإيطالي لم يكن مشهوراً بتفوقه الشديد. غير أن السلاح الجوي الإيطالي بعكس ذلك، كان وافر العدد وكثير الفاعلية. ولقد وضعت الجغرافية السياسية الإيطاليين على جانبي النيل. إذ كان بإمكانهم الزحف براً من ليبية على مصر أو من أريترية على السودان. ومن ثم كان الإنكليز في وضع لا يحسدون عليه، لأن وصول المؤن والتعزيزات إليهم سيكون شبه مستحيل. إذ مع توقف عملية الإبحار الحليف تقريباً في المتوسط لم يبق أمام البوارج البريطانية من ممر بحري سوى الطريق الطويلة حول رأس الرجاء الصالح، وحتى عن تلك الطريق كان هناك خطر شديد إذا ما استغل الإيطاليون الفرصة تماما وعمدوا إلى إغلاق البحر الأحمر، وكان بإمكان السفن

الحليفة عبور باب المندب، لكن المضيق لم يكن يزيد عرضه على 20 ميلاً. ومع أن هذا المضيق كان في حراسة القوات الفرنسية المتمركزة في جيبوتي والقوات البريطانية في عدن، إلا أن الطائرات الإيطالية كانت على بعد بضعة أميال فقط في أريترية.

إذاً، كان الخطر على مصر واضحاً أمام أي خريطة مرسومة من الجو: فالطائرات الإيطالية تستطيع، إذا استخدمت بفاعلية، أن تغلق قناة صقلية والبحر الأحمر أمام الملاحة البريطانية. وإذا حدث ذلك لن يعود بالإمكان نقل المؤن والتعزيزات إلى مصر، ومن ثم فإن سقوطها سيصبح حتمياً. بل إن السلاح الجوي الإيطالي، إذا أراد، أو إذا استطاع، كان يمكنه أن يسوي المسألة العسكرية كلها بعزل وادي النيل. ولكي يتجنب البريطانيون مثل هذه الهزيمة، لابد لهم من تعزيزات جوية عاجلة. لكن كيف يمكن لهذه التعزيزات أن تصل؟

ما دامت فرنسة قادرة على البقاء في الحرب، كان يمكن نقل تلك الطائرات عبر الأجواء الفرنسية وحتى مالطة، لكن عندما تصل هذه الطائرات إلى مالطة أو حافة تونس سيظل فاصلاً بينها وبين مصر نصف المتوسط على الأقل والعرض الليبي! وكانت بريطانية قد شعرت في الواقع قبل سنوات بمشكلة التعزيزات الجوية إلى مصر، حين أخذت علاقتها مع شواطئ إيطالية تتدهور. وخطرت للإنكليز غير مرة فكرة نقل هذه الطائرات في أجواء إفريقية، لكن شواطئ ساحل الذهب (غانا الآن) كانت تبعد 200 ميل عن وادي النيل.

... لكن كان لا بد من المحافظة على مصر! فالزاوية الجنوبية ـ الشرقية كانت شديدة الأهمية بالنسبة إلى الحلفاء. وكانت القوات الفرنسية يومها تجمّع في سورية ولبنان، والسفن الحربية البريطانية ترسو في حيفا في ظل جبل الكرمل، وكان الأسطول الحليف في الإسكندرية يؤمن سلامة المشرق. كان كل شيء مهيأً، ولم يبق سوى أن تبدأ لعبة الحرب. وكان بعض اللاعبين، مثل تركية، قد خرجوا من الحرب، أما اليونان وجزرها وصولاً حتى كريت فكانت محايدة، ومن السماء في العام 1940 بدأ كل شيء على الأرض قلقاً: زرقة المتوسط، وكثبان الرمل البنية اللون، والرجال الذين جلسوا ينتظرون بصمت قرب مدافعهم.

• • •

obeikandl.com

هكذا كان يبدو هذا «البساط» الحربي، الذي سوف تدور حوله أضخم المعارك في الحرب العالمية الثانية، وكما كان هناك جنرالات على الأرض، هكذا أيضاً كان هناك ضباط وجنود في «السماء» لكن المعارك الجوية في ذلك العصر لم تكن تنطبق عليها شروط الميدان. ففي الجو ـ أيام تلك الطائرات ـ لم تكن هناك خطط ومخططات، بل كان العنصر الأول هو شجاعة الطيار ومقدرته، كل ما عليك هو أن ترمي شاباً شجاعاً إلى الجو وتتركه لحظّه ومقدرته. إنها، أي المعارك الجوية «دورة الفروسية القاتلة»، كما قال رايلي وهو يصف المعركة في سماء لندن. وعن هؤلاء الطيارين أيضاً قيل: «لم يحدث في تاريخ النزاع البشري، أن شعر مثل هذا العدد الكبير من الناس، أنه مدين لمثل هذا العدد القليل».

استقبل العلم العسكري هذا القادم الجديد في بادئ الأمر بشيء من رباطة الجأش، لأنه ظهر أولاً في صورة منطاد، لكن أيضاً منذ العام 1670 تكهن أحد الإيطاليين بالكثير من الحماس بأنه ذات يوم سوف تنفجر حرب بين السفن الطائرة، تكون قادرة على تدمير المدن وخطوط الملاحة. وفي العام 1783 حلق في سماء فرساي منطاد يحمل نعجة ودجاجة وبطة، فقيل يومها إن هذا الاختراع الجديد لن يفيد العسكريين في أكثر من عمليات الاستطلاع. وبالفعل استخدمت المناطيد لهذا الغرض على نطاق ضيق في الجمهورية الأولى، كما عرض على نابوليون مشروع يقضي بغزو إنكلترة في مجموعة مناطيد، يحمل كل منها ألف رجل و25 حصاناً ومدفعين! لكن نابوليون هز كتفيه ضاحكاً.

إلا أن فكرة المهاجمة من الجو ظلت تحاصر الجميع، بل إن البندقية هوجمت من الجو، عندما أسقطت عليها المناطيد النمساوية كميات مختلفة من القنابل. واستخدمت المناطيد أيضاً في الحرب الأهلية الأميركية، وفي الحرب الألمانية ـ الفرنسية، وفي حروب الباراغواي. وفي العام 1890 عمد البريطانيون إلى تشكيل فرقة خاصة للمناطيد، بعدما نجحوا في استخدامها في السودان وبتسوانا لاند.

غير أن استخدام الأجواء ظل محصوراً إلى حد بعيد بعمليات الاستطلاع. ويقول و. رايلي في كتابه «الحرب في الأجواء ـ 1922»: إنه عندما حلقت أول «طائرة» في

بريطانية بسرعة 40 ميلاً، علَّق أحدهم قائلاً: «كيف يمكن لنا أن نستطلع الأشياء، وهذه الآلة الشيطانية تحلق بمثل هذه السرعة العجيبة». لكن في العام 1911 كانت «فرقة جوية» تلحق بالقوات البريطانية للقيام بالمهمات الاستطلاعية، ويبدو أن فرنسة طبقت القاعدة نفسها كما يفهم من كتاب «تحولات الحرب ـ 1911» للكاتب الفرنسي كولان. والحقيقة أن مؤتمر السلام الشهير في لاهاي أصدر بياناً يمنع فيه «إسقاط المتفجرات من المناطيد، أو غيرها من الوسائل المشابهة». إلا أن الإيطاليين كانوا في العام 1911 أول من استخدم الطائرات للاستطلاع والقصف معاً، وذلك ضد الأتراك في طرابلس، ومن دون أن يكون باستطاعة هؤلاء الرد عليهم.

وهكذا بدأت التجارب في هذا الحقل تأخذ أبعاداً أخرى. وكان الرواد يتساقطون بأعداد كبيرة، الأمر الذي حمل رايلي على القول: «إن أولئك الرجال الذين استطلعوا الجو وسيطروا عليه في القرن العشرين، هم ورثة أولئك الذين اكتشفوا أميركة وسيطروا عليها في القرن السادس عشر». ولن تمضي سنوات طويلة قبل أن يصبح الجو سلاحاً آخر، ليس بأهمية الجيوش فحسب، بل أكثر أهمية منها أيضاً.

• • •

منتصف العاشر من حزيران/ يونيو 1940 دخلت إيطالية الحرب ضد الحلفاء. ولم يكن الحدث مفاجئاً. فالكلام الصادر عن روما منذ فترة لا يخفي عواطفها تجاه دول المحور، وكان الحلفاء يستعدون لمواجهة مثل هذا التطور، وقد عقد البريطانيون والفرنسيون اجتماعات عدة حول الموضوع في فلسطين وسورية، وذهب ضباط بريطانيون إلى القيادة الفرنسية في تونس والجزائر، وحتى إلى الدار البيضاء من أجل التنسيق بين الفريقين. وبما أنه كان هناك خوف من أن تهدد إيطالية الطرق الجوية عبر إفريقية، عقد الحلفاء دراسات على الطبيعة في التشاد أيضاً. واتجه التفكير بادئ الأمر إلى أن تقوم القوات الحليفة في المشرق بعمل عسكري ما بقيادة الجنرال ويغان في بيروت، وراح الفرنسيون يحلمون بالوصول إلى المناطق التي توقفوا عندها في الحرب العالمية الأولى، غير أن الحقائق كانت قد تغيرت كثيراً الآن، ولذا اكتُفي بالمنطقي من الأحلام، أي أن يسعى الأسطول الفرنسي إلى تدمير جزء كبير من

الأسطول الإيطالي، ومن ثم يحافظون على الوضع في المتوسط غرب صقلية، في حين يسيطر الأسطول البريطاني في الإسكندرية على الطرق البحرية الشرقية، وكانت لدى الحلفاء آنذاك أسباب تدعوهم للافتراض بأنه في مواجهة التعدي الإيطالي تستطيع القوة البحرية الحليفة أن تبقي على الخط البحري مفتوحاً من وإلى قناة السويس، وكذلك يمكن إيصال التعزيزات إلى مالطة، جواً أو بحراً، من المستعمرات الفرنسية القريبة، في حين يؤمن الفرنسيون حراسة بوابات البحر الأحمر من جيبوتي. أما براً فكان لا يزال منطقياً أن يقوم الفرنسيون بهجوم على ليبية من الغرب، مع أن قوات فرنسية كثيرة كانت قد سحبت إلى فرنسة. وكانت طرابلس تقع في مرمى المدافع الفرنسية الرابضة في مطارات تونس، بل إن ثلثي الأراضي الإيطالية كان يمكن قصفها من «إفريقية الشمالية»، كذلك بقي عدد كبير من الطائرات الإيطالية في إيطالية للمساعدة في حماية القواعد والموانئ والمدن هناك. غير أن غزو القوات الفرنسية لولاية طرابلس كان شديد الاحتمال، لدرجة أنه: كان هاجس الإيطاليين أكثر مما كان هاجس الحلفاء، ولذا تجمعت قوات غرازياني في الغرب، لمواجهة مثل هذا الزحف. وكانت القوات الإيطالية في وضع لا تحسد عليه، لأنها كانت مهددة أيضاً بغزو بريطاني من الشرق، من مصر، ومن ثم لم يكن سهلاً على الإيطاليين الصمود على جبهتين صحراويتين، يفصل بينهما 200 ميل، مع أن سلاحهم الجوي كان أقوى من سلاح أعدائهم.

هذه الفرضيات الجميلة كانت مفتوحة أمام الحلفاء حين بدأت الحرب ضد إيطالية، لكن الأحداث التي تسارعت في أوروبة غيرت كل شيء، فالمقاومة الفرنسية على الجبهة الألمانية كانت تضعف بسرعة. واستُدعي الجنرال ويغان من بيروت على وجه السرعة، لكي يرث هزيمة كبرى في بلاده. وغادرت الحكومة الفرنسية باريس إلى مدينة «تورني»، أسبوعاً من المداولات هناك، حيث أبرق رئيس الوزراء إلى تشرشل مقترحاً القبول بهدنة مع ألمانية كما أرسل النداء بعد الآخر إلى الرئيس الأميركي روزفلت. وما هي إلا أيام حتى اختار المارشال بيتان الاستسلام لألمانية، معلناً أن بريطانية سوف تذبح في نهاية الأمر مثل دجاجة.

في مثل هذا الجو لم يكن ممكناً بالطبع استخدام القوات الفرنسية لمهاجمة الإيطاليين. لكن الكارثة التي أحاقت بالحلفاء في القارة الأوروبية لم تكن تمنعهم من التحرك في المتوسط. وهكذا اقتحمت البوارج الفرنسية المتمركزة في الإسكندرية بحر إيجه، في حين راح أسطول فرنسي ـ بريطاني يقصف تلال «البردية». وبدأت الحرب الجوية فوراً بغارات متلاحقة على الأهداف الإيطالية، قامت بها طائرات من مصر والسودان وكينية، ورد الإيطاليون بقصف جيبوتي والسلوم ومرسى مطروح. لكن ذلك الهجوم الموعود على ليبية لم ير النور، لأنه بعد أسبوع واحد كان المارشال بيتان يعلن الهدنة مع الألمان. وفي المغرب قبل الجنرال الفرنسي «توغيس» الهدنة متوددا، أما في بيروت فقد أكَّد الجنرال ميتلهاوزر للجنرال الإنكليزي ويفل «عزمه على مواصلة الكفاح». وكان هذا الأمر مهماً طبعاً، لأن الجيش الفرنسي في المشرق كان يسيطر على منطقة حيوية جداً بالنسبة إلى الدفاع عن مصر والعراق. ومن جهة أخرى أعلن الجنرال لوجنتيوم في جيبوتي أن القوات الفرنسية هناك ستظل تقاتل إلى جانب الحلفاء.

كان المارشال بيتان في باريس قد قبل بوقف القتال في جميع الأراضي الفرنسية، والمستعمرات، والمحميات، والدول الواقعة تحت الانتداب، كما وافق على تجريد جميع القوات الفرنسية وتفكيكها. غير أنه كان باستطاعة القادة الفرنسيين في كل منطقة، أن يعصوا تلك الأوامر إذا شاؤوا، إلا أن معظمهم لن يفعل. فقد شملت رغبة بيتان في الاستسلام معظم الجنرالات. وسرعان ما أعاد إلى الألمان 400 طيار، كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي البريطانيين. ثم سارع أميرال البحرية، دارلان، إلى إنزال العلم عن أساطيله، وتبعه الجنرال توغيس في مراكش، ثم ميتلهاوزر في بيروت، ولو بعد تردد، أما لوجنتيوم فما لبث هو أيضاً أن خضع لروح الاستسلام التي عمت ضباطه في جيبوتي. وفَّر عدد قليل من الفرنسيين الأشراف إلى المقاطعات البريطانية لمتابعة القتال، غير أن وجه الحرب كله قد تغير بالاستسلامات التي أعلنت في 22 و24 حزيران/ يونيو.

بدت ثمار ما فعله بيتان بكل وضوح على الخريطة. ذلك أن إلغاء البحرية الفرنسية كلها، بجرة قلم من رجل عجوز، قد غيرت نحو الأسوأ الميزان العسكري كله في المتوسط.

وكان على الإنكليز أن يواجهوا الموقف بتلك القوى البحرية الموجودة في الإسكندرية، وتلك التي ستتوافر لهم في جبل طارق فيما بعد. غير أنه بين هاتين النقطتين كانت تمتد مسافة قدرها 2000 ميل، ليس فيها ميناء صديقٌ واحدٌ سوى فاليتا. وعلى الشاطئ الجنوبي للمتوسط أصبح ألف ميل من السواحل بين ليلة وضحاها في عهدة حياد مشكوك في أمره. وأصبحت لندن تخشى الآن أن أي قافلة بحرية لها لن تستطيع عبور المتوسط من دون عملية حربية.

مع حلول العام 1941 أخذت الحرب البحرية تصبح أيضاً حرب مطارات. وأغلق المتوسط أمام الملاحة العادية، بسبب وجود طائرات «المحور» في مطارات ومهابط خاصة في سردينيا وليبية وصقلية. وصارت التعزيزات والمؤن المرسلة إلى مصر تنقل الآن حول رأس الرجاء الصالح، وعبر مضايق البحر الأحمر، حيث تكون أكثر فأكثر عرضة للطائرات الإيطالية المتمركزة في أريترية. ومن ثم فإن الطريق البحرية إلى الهند قد استطالت تلقائياً بنحو 4 آلاف ميل، وإلى سنغافورة بنحو 3 آلاف ميل.

لذلك وأمام هذه الخريطة المعقدة.. كان لا بد من دور للطيران. وقد كان ذلك الدور كبيراً ورئيساً في الشرق عند الإنكليز وعند الألمان، ناهيك - طبعاً - عن الفرنسيين والإيطاليين، لكن ما دام لا بد من اختيار جنرال واحد كمثال، فالأرجح أن مارشال سلاح الجو البريطاني اللورد تيدر هو... الأفضل!

من هو تيدر؟

بعد نهاية الحرب الثانية، قال أحد المراسلين الحربيين المشهورين في برنامج إذاعي: إن تيدر «لم يملك في أي وقت تلك الصفات المتعارف عليها في قائد حربي. وقد كان أسلوبه في العمل أسلوب رجل علم لا رجل عسكري. وكانت مقدرته الحقيقية بصفته رجلاً أكاديمياً متفوقاً دائماً خلف مكتبه، حيث يخطط للانتصار على عدوه».

ومثل الكثيرين من أبناء جيله لم يكن تيدر يحلم في بداية الأمر بالانضمام إلى الجندية، لكن مع اندلاع الحرب الأولى كان لا بد من البزة العسكرية. أما انضمامه إلى السلاح الجوي أو «الفصائل الملكية الطائرة» في العام 1915 فقد كان بمحض

الصدفة، وذلك لأنه كان يعاني من نقص بسيط في جسمه. وبعد انتهاء الحرب الأولى لم يخرج إلى الحياة المدنية، بل اختار البقاء في الثكنة، متنقلاً في مناصب مختلفة بين تركية والشرق الأقصى.

كان يحب أن يظل في الخارج بعيداً عن مناورات «الوايتهول» ومؤامراتها. لكن في العام 1938 استدعي إلى وزارة الطيران، لكي يعين مديراً للأبحاث والتنمية. وقد أصبح هذا المنصب المهم أكثر أهمية مع اندلاع الحرب في العام 1939.

ذلك أن الكثير من انتصارات أو فشل السلاح الجوي، كان يتوقف على قرارات تلك المديرية. وكان تيدر يعرف الطائرة الجيدة من الطائرة غير الفاعلة، ولذا كان عليه باستمرار أن يواجه تشرشل ووزير الطيران (1940ـ1941) اللورد بيفر بروك، اللذين كانا يعجبان بالبهلوانيات أكثر من الفاعلية الحقيقية. وقد ظل تشرشل كذلك طوال فترة الحرب، وغالباً ما كان يشير إلى تلك الطائرات على أنها «ألعابه».

بعد قليل من اشتعال الحرب سيصبح تيدر واحداً من جنرالات الشرق... ولكن بالصدفة!

بالصدفة! كان قائد السلاح الجوي البريطاني في الشرق الأوسط العام 1940 هو ماراشل الجولونغمور، وفي أواخر ذلك العام طلب أن يعين تيدر نائباً له، لكن الحكومة رفضت ذلك، وبعثت إليه بضابط آخر، غير أن طائرة الضابط البديل أسقطت وهي في الطريق إلى القاهرة، وهكذا عاد المنصب تلقائياً إلى تيدر.

وشد تيدر حزامه وتوجه إلى القاهرة، لكي يلعب «الدور الجوي الأكثر أهمية في الحرب العالمية الثانية» كما يقول لنا المارشال الجوي كريستوفر فوكسلي نوريس. فالمعارك التي جرت في الشرق الأوسط، هي التي أثبتت أن القوة الجوية ليست مجرد قوة مساندة للقوى البرية، وإنما هي القوة الحاسمة.

وعندما وصل تيدر إلى القاهرة في كانون الأول/ ديسمبر 1941 كانت معنويات القوات البريطانية قد عادت إلى الارتفاع. فالبحرية حسمت الميزان لصالحها بعد الغارات الجوية التي قامت بها طائرات البوارج على مدينة تارانتو، والجيش كان

قد صد الهجمات الإيطالية على القواعد في مصر، وحقق مكاسب ميدانية عديدة، أما السلاح الجوي فقد استطاع، على الرغم من اهتراء بعض الطائرات، أن يصد السلاح الجوي الإيطالي في الصحراء الغربية والحبشة، لكن هذه الانتصارات كانت أبعد من أن تكون هي الانتصار النهائي. إذ على الرغم مما حدث في تارانتو ومن ثم تدعيم الوضع في مالطة، فإن الممرات البحرية عبر المتوسط ظلت محفوفة بالمخاطر. وكانت معظم القوات والتعزيزات لا تزال تصل إلى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح. وكانت الطائرات تنقل مفككة إلى نيجيرية حيث يعاد تجميعها، ومن هناك تطير إلى القاهرة.

شعر تيدر بسعادة حقيقية وهو يتسلم منصبه وتكليفه بالإشراف على العمليات في الصحراء الغربية ومصر. وإذ خبر لأول مرة القتال الجوي هناك، اعتراه فرح حقيقي فكتب يقول: «إنه أجمل أسبوع بالنسبة إلي طوال الخدمة العسكرية. ومن الصعب عليَّ أن أشرح ذلك الشعور الذي خامرني وأنا في الصحراء، ولست أدري ما إذا كان السبب هو ذلك الجو النقي اللماع، أم الشعور المعنوي لدى رجالنا». وفي مقاطع أخرى من مذكراته يعرب عن إعجاب شديد برجال الميدان والجو معاً: «لقد أمضيت أربع ساعات أتحدث إلى رجالنا من البريطانيين والأوستراليين والنيوزيلنديين والروديسيين، وفي نهاية الأمر رحنا نغني، إنهم يثيرون الإعجاب حقاً، كيف ينتقلون من حملة إلى أخرى إلى ثالثة، وفي ظروف صعبة بل مستحيلة».

غير أنه بقدر ما كان معجباً بالرجال بقدر ما كان قلقاً بسبب الطائرات نفسها. وكان يشعر أنها رديئة الصيانة، ومتخلفة عن غيرها. وفي حين استطاعت البحرية البريطانية في الشرق الأوسط أن تبعد نفسها عن مناورات السياسيين ونفوذهم، لأن قيادتها كانت في الإسكندرية، فإن الجيش والسلاح الجوي ظلا خاضعين للنفوذ السياسي إلى حد بعيد. لكن تيدر استطاع أن يقيم علاقات حسنة مع القائد العام الجنرال «ويفل»، وكذلك مع خلفه «أوكينلك»، مع أنه كان يتضايق من عناد الاثنين وترددهما، كما كان يشعر أن الكثيرين من الضباط المحيطين بهما دون المستوى المطلوب.

كانت الغيوم تتلبد أكثر فأكثر في سماء الشرق الأوسط. ومع حلول كانون الثاني/ يناير 1941 وصلت طلائع السرب الألماني العاشر إلى صقلية، بعدما رأى الألمان أن حلفاءهم الإيطاليين يعانون من نواقص كثيرة، فهبوا إلى تعديل الميزان. وقد أثرت هذه الخطوة في الوضع البحري أكثر من تأثيرها في الوضع الجوي نفسه، إذ ازدادت المخاطر على القوافل البحرية. وصارت الآن المحافظة على مالطة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى الحلفاء، وكذلك المحافظة على تلك القواعد التي احتلها الإنكليز في برقة (بنغازي).

obeikandl.com

المراجع

المراجع العربية

البرت حوراني، سورية ولبنان، لندن، ١٩٤٦.
جورج انطونيوس، اليقظة العربية.
عباس عبد الحليم، فتاة من فلسطين، عمان، ١٩٤٩.
عباس مكي، المسألة السودانية، لندن، ١٩٥٢.
عبدالفتاح ابراهيم السيد بدور، العلاقات المصرية السودانية، لاهاي، ١٩٦٠.
مجيد خدوري، العراق المستقل ١٩٣٢ ـ ١٩٥٨، لندن، ١٩٦٠.
ـ مذكرات الملك عبدالله، نيويورك، ١٩٥٠.

المراجع الاجنبية

Barrès, M. *Une enquête au pays du levant,* Paris, 1923.
Berque, J. *L'Egypte, Impérialisme et révolution,* Paris, 1967.
Carver, M. *El Alamein,* B. T. Batsford Ltd, London.
Carver, M, *Tobruck,* B. T. Batsford Ltd, London.
Catroux, G. *Deux missions en Moyen-Orient,* 1919 - 22, Librairie Plon, Paris.
Eisenmenger, V. *Archduke Francis Ferdinand*, Selwyn and Blount Ltd, 1928.
Fabre Luce, *A. Deuil au levant,* Paris, 1950.
Fisher, S. N. T*he Middle East: A History,* Routledge and Kegan Paul Ltd, London.
Froembgen, H. *Kemal Ataturk*, jarrolds Publishers Ltd, London.
Gardner, B. *Allenby of Arabia*, New York, 1966.
De Gaulle, C. *War Memories* 1940-46, A de Capo.
George, L. *Memoirs of the Peace Conference.*

obeikandl.com

Guedalla, P. *Middle East 1940-42; Study in Air Power,* Hodder and Stoughton, London.
Holt, P.M.A *Modern History of the Sudan,* London, 1961.
Lapierre, J. *Le mandat français en Syrie*, Paris, 1936.
Lenckzowski, G. *The Middle East in World affairs,* Cornell University Press.
Leslie, S. *Mark Sykes: His Life and Letters,* Cassell & Co. Ltd, London, 1923.
Maurois, A. *Marshall Lyautey,* The Bodley Head Ltd, London.
Mockeller, A. *Our Enemies the French,* Leo Cooper, London.
Montgomery, B. *Memoirs,* Collins, 1958.
Morgan-Jones, J. F. *La fin du mandat français en Syrie et au Liban,* Paris, 1938.
Noves, M. I. *Italian Foreign Policy* 1918-32, London, 1932.
Sachar, H. M. *Europe Leaves the Middle East* 1936-54 Alfred A. Knopf, New York.
Sachar, H. M. *The Emergence of the Middle East 1914-24,* Alfred A. Knopf, New York.
Schmidt, H.W. *With Rommel in the Desert*, London 1951.
Spears, E. *Fulfilment of a Mission: Syria and Lebanon 1941-44,* Archon Books.
Villari, L. *Italian Foreign Policy Under Mussolini*, New York, 1956.
Wavell, A. *Allenby: A Study in Greatness,* George G. Harrap & Co. Ltd, London.
Weygand, H. *Idéal vécu,* Falmmarion, Paris.
— *La campagne du général de Falkenhaym en Palestine, Larcher,* Paris.
— *Background of the Middle East,* Cornell University Press.

obeikandl.com

المحتويات

إهداء	5
المقدمة: شرق يبهر الغربيين	7
1 - اللنبي: أحب العصافير واحتل القدس	73
2 - هنري غورو: الذراع المقطوعة على فرس أبيض	93
3 - جورج كاترو: الحلم بتاج دمشق	109
4 - إدوارد سبيرس: العباءة التي هرّبت ديغول!	123
5 - مصطفى كمال: من حلب إلى الأناضول	141
6 - الجنرال ساراي: استدعته باريس بسبب بكركي	161
7 - الجنرال ويغان: يربط الشرق بالبلقان	175
8 - الجنرال دنتز: فرنسة تنقسم في دمشق وتساعد الكيلاني في العراق	191
9 - ويفل: من العلمين إلى سورية إلى النفي	213
10 - الماريشال كلود أوكينلك: الهزائم انتصارات	225
11 - رومل: أحبّ الصحراء... فهزمته الصحراء	249
12 - العلمين: سوف يربحها مونتغمري	271
13 - الجنرال ألكسندر: من صحاري مصر إلى زيتون تونس	293
14 - ديغول: الضابط الذي حارب الإنكليز من لندن	305
15 - الماريشال لا يوتيه المغربي: الحظ يطفئ النيران	323
16 - من يربح الجو يربح الأرض أيضاً	337
المراجع	353

obeikandl.com

obeikandl.com

قيل في الكاتب

«إذا كانت المعرفة هي ثروة الفقراء، فإن سمير عطاالله مليونير ثقافي، أو هو من أصحاب أكبر الثروات المعرفية في العالم العربي».

عبد الله باجبير

(الشرق الأوسط)

«ليس هناك بين الكتاب اللبنانيين من يجيد كتابة ما هو فيه من الصباح إلى المساء مثل سمير عطاالله».

ياسين رفاعية (الظهيرة)

«ومما يزيد في تقريب الكتاب أسلوب سمير عطاالله».

محمد علي فرحات (الحياة)

«سمير عطاالله سرق الكلمات التي كنت سأقولها، وصبَّها في قالبه الاستثنائي الخاص المستعصي على التقليد».

غادة السمان (الحوادث)

«وفي لبنان تتوقع كل شيء وأي شيء على حد تعبير الكاتب اللبناني الكبير سمير عطاالله».

إحسان بكر (الأهرام)

«الكاتب الممتاز قارئ ممتاز أولاً. الزميل الأديب سمير عطاالله هو من هذا الصنف بامتياز».

حافظ محفوظ (الحوادث)

«إذا كنت تريد متابعة تحليل سياسي عربي مكتوب برزانة وعمق. فاقرأ سمير عطاالله. وإذا كنت تريد خبيراً في السياسة الدولية يعرف الدول الكبرى مثل كفه والقرى الصغيرة في مجاهل العلم بأزقتها، فاقصد سمير عطاالله. وإذا كنت تريد أن تقرأ نثراً عربياً أقرب إلى الشعر ووصفاً واقعياً أقرب إلى الخيال وأدب الرحلات وقد صيغ بأسلوب أقرب إلى القصة، فتابع سمير عطاالله».

رؤوف سحوري (الصياد)

obeikandl.com